

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



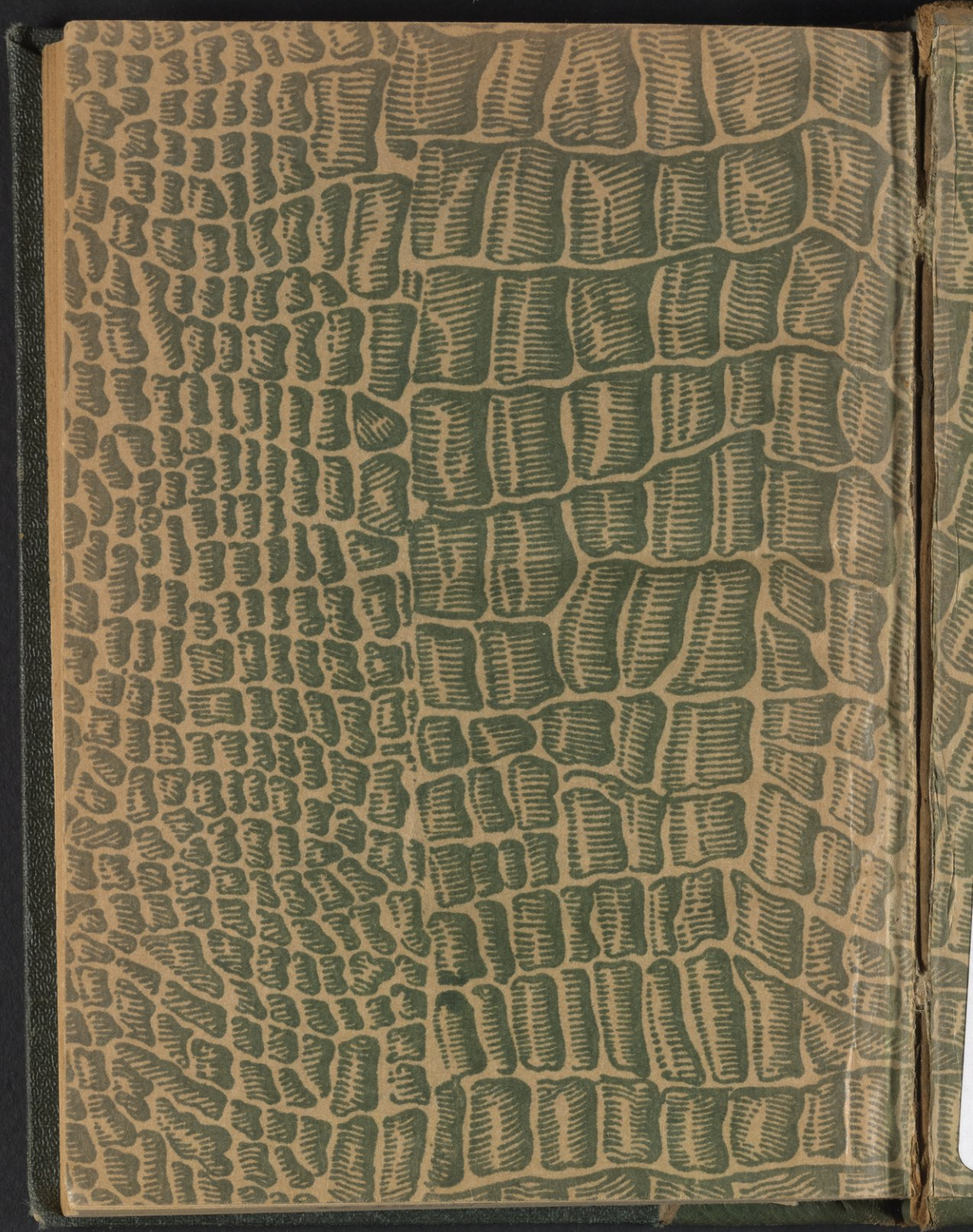
3 8534 01039 9008

Library of
The American University
at Cairo

eppp is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+.+

PROVERBS 3-13

libris datis
memoriam
olk Mc Kinney
gh, Pennsylvania



04-B4.733

دزائیلی

DA

564

B3

B3X

تألیف

دکتر ارشد البراوی

مدرس التاريخ السياسى والاقتصادى
بكلية التجارة (جامعة فؤاد الأول)

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا تليفون ٠١٣٩٤

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

مقدمة الكتاب

هذه قصة حياة دزرائيلي السياسي الذائع الصيت ، الذي شق طريقه إلى المجد ، متخطياً كافة الصعاب والعقبات ، وقام بدور سجله له التاريخ بمداد التقدير . ولكننا نقدم للقارئ قصة أخرى لا تقل روعة وجلالا . فقد ولد دزرائيلي في مستهل القرن التاسع عشر ، ومات قبل انتهائه بقليل . وخلال هذه الفترة الطويلة مرت بالبلاد أحداث على أعظم قدر من الأهمية والخطر . فتحوّلت إنجلترا إلى مصنع يمون العالم بما يحتاجه ، وبدأ أثر الثورة الصناعية واضحاً في قيام معسكري الرأسمالية والعمالية ، وعدلت البلاد سياستها التجارية ، وشهدت إصلاحاً نياياً سار بها خطوات واسعة صوب الديموقراطية ، واتسعت الإمبراطورية البريطانية واستحدثت أسلوباً جديداً في الحكم والاستعمار . عاصر دزرائيلي هذه التطورات جميعها ، وساهم فيها مؤيداً ومعارضاً ، ومحبذاً وناقداً . فالكتاب إذن عرض موجز لتطورات الحياة والنظم الإنجليزية في القرن الماضي .

وقد حاولنا أن نجعل له طابعاً تهذيبياً ، لأننا نكتب للشباب

الذى تؤمن به . سيرى القارىء زعيما يحطم وحدة حزبه فى سبيل
المصلحة العامة ، ونائباً يخرج على زعيمه دفاعاً عما اعتقده يتفق
مع الصالح القومى ، وزعيماً يكرس حياته لتربية الحزب وتهذيبه
حتى يسير الزمن ، ويخلع عن نفسه رداء المحافظة والجمود .

على ضوء هذه المبادئ ، نقدم كتابنا إلى القارىء العربى ،
الذى يشعر بحاجته إلى أوثق المعلومات وأدقها ، بدون أن يتسع
وقته للرجوع إلى المطولات والمصادر الأصلية المتشعبة . وبهذا
تؤدى ناحية من واجب على عاتقنا ، إذ على رجال الجامعة أن
يطلبوا ، أو يخرجوا من البرج الذى يعيشون فيه .

وإننا نرجو أن نكون قد وفقنا إلى الاقتراب من الهدف
الذى جعلناه نصب أعيننا ، فما خلق الفرد الكامل ، ولن يخلق ،
وإلا توقف سير القافلة الإنسانية ؟

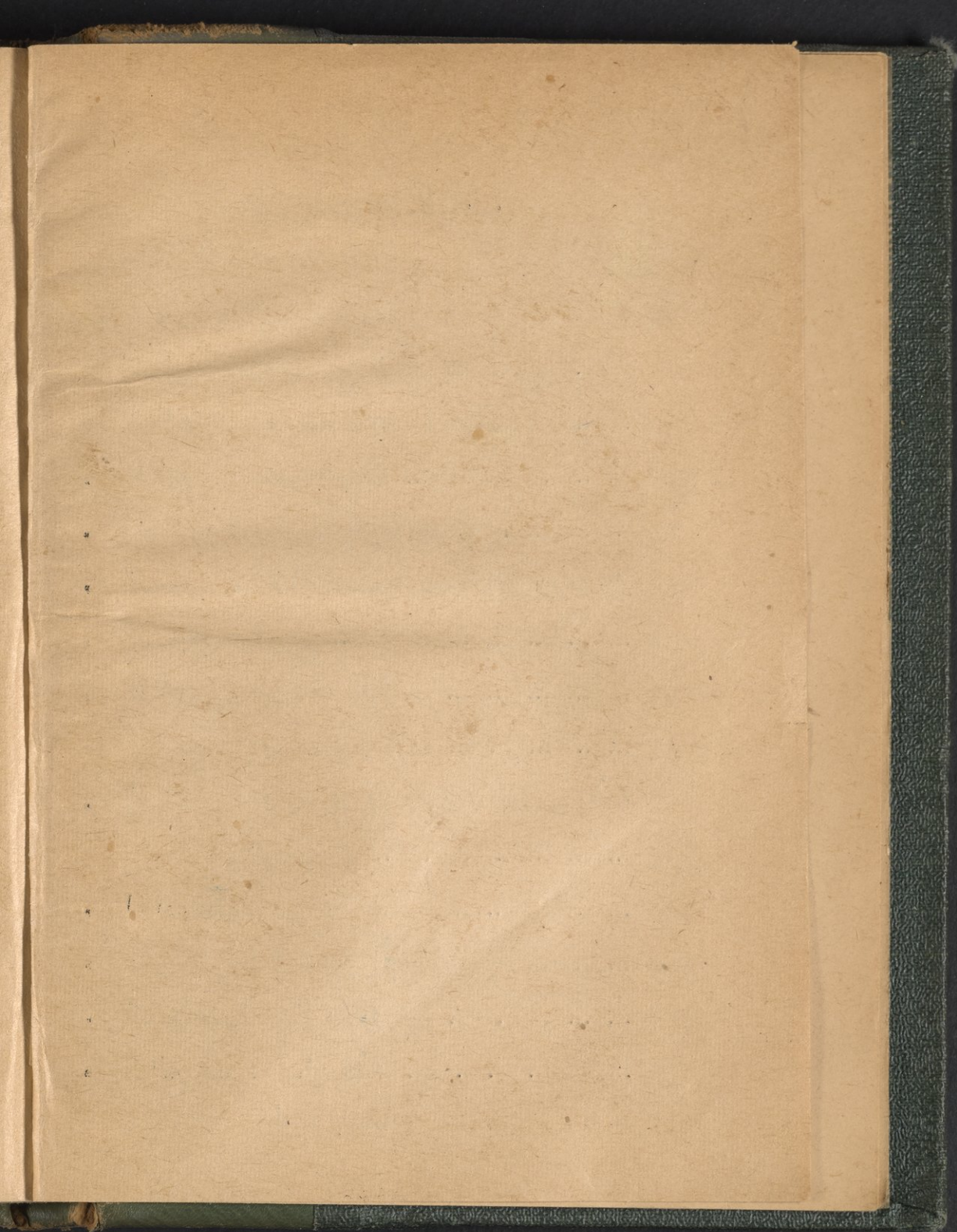
راشد البراوى

كلية التجارة
مايو ١٩٤٥

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول : اليهودى الصغير	١
• الثانى : ذهب مع الريح	١٠
• الثالث : الاستقلال عن الأحزاب	١٨
• الرابع : عضو البرلمان	٢٧
• الخامس : سقوط حكومة الهويج	٣٨
• السادس : الخيانة العظمى أودزائيل وروبرت بيل	٤٩
• السابع : الزعيم	٦١
• الثامن : وزارة المالية	٧٣
• التاسع : وزارة دربي الثانية	٨٩
• العاشر : فوز مزدوج (قانون ١٨٦٧ — رآسة	
الوزارة)	١٠٤
• الحادى عشر : فراغ	١١٨
• الثانى عشر : فى سبيل الإمبراطورية	١٢٥
• الثالث عشر : السلم مع الشرف	١٢٢
• الرابع عشر : نهاية قصة	١٣٩
ثبت بالمصادر	١٤٣



الفصل الأول

اليهودى الصغير

فى عام ١٧٤٨ غادر بنيامين إسرائيلى أو دزرائيلى موطنه
بإيطاليا كي يتخذ من البلاد الإنجليزية وطناً له ، ينعم فى ظلاله
بما يكفله الدستور البريطانى من الحرية الدينية ، وليستفيد بما
تهينه الحياة الإنجليزية من فرص النجاح وظروف التوفيق فى
ميدان التجارة . وما كان له أن يعلم ما يحجى الدهر لأسرته ،
وما يعده القدر لحفيده من مجد عظيم يخلد اسم الأسرة .

ويجد صاحب الترجمة لذة نفسية وسروراً باطنياً فى الحديث
عن أسلافه وتاريخهم القديم . وهو إذ يحدثنا عنهم وعن تاريخهم
إنما يروى لنا قصة هى مزيج من الواقع والخيال ، ويعرض لنا
لونا من ألوان الاضطهاد الذى أصاب شعب إسرائيل من عصر
إلى عصر ، ومن بلد إلى بلد . ونعلم من روايته أن الجالية
اليهودية بأسبانيا عاشت فى سلام ورخاء حتى اعتنق الرومان
المسيحية ، فتبدل الحال غير الحال ، وتحول التسامح إلى اضطهاد .
ثم زاد الأمر حرجاً وخطراً حين دانت البلاد للقوط الغربيين
فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، وهنا التمس اليهود

النجدة من العرب . فعبر طارق بن زياد المضيق الذي يحمل اسمه
 وأخضع البلاد لسلطان المسلمين . وفي ظل العهد الجديد عاش
 اليهود جنبا إلى جنب مع الفاتحين ترفرف على الجميع راية تعاليم
 الإسلام السمحاء ، وتظلمهم قوانين وشرائع روحها العدالة ،
 وتسودهم المساواة التي تسمو على فوارق الجنس واختلافات
 الدين ، إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولكم دينكم
 ولى دين . ومن الطبيعي أن يزداد نشاط الجالية اليهودية ، ومن
 المعقول أن يعظم ثراؤها ، وأن يشغل أفرادها أرقى المناصب .
 غير أن النسبة ما لبثت أن حلت بسقوط دولة العرب ، فعادت
 البلاد من جديد إلى سلطان المسيحية تصحبها قسوة محكم التفتيش .
 وخير أفراد الجالية بين نبذ دين إله إسرائيل أو النفي والتشريد .
 فغلبت المادية والسلامة على فريق ، وآثر الفرار مع العقيدة فريق
 آخر توجه نفر منه إلى إيطاليا أو بالأحرى إلى جمهورية البندقية .
 ومن سلالة هؤلاء اللاجئين بنيامين إسرائيلي . هذا ما يقصه علينا
 السىاسى الكبير . غير أن البحث العلمى الذى توافر عليه الكثيرون
 لا يدعم روايته بالأسانيد الصحيحة . بل لا يؤيد أسطورة إقامة
 الأسرة فى البندقية . وأكثر من هذا نستطيع أن نجزم أن جد
 الأسرة كان من أهل فرارا ، حيث أقامت بها جالية يهودية من
 أصل شرقى ، وفدت إليها قبل عهد الاضطهاد الذى تعرض له
 يهود أسبانيا فى أيام الملك فرديناند والملكة إيزابلا .

أقام الجد في إنجلترا واشتغل كاتباً في أحد البيوت المالية ،
ثم استقل بالعمل واشتغل بالتجارة ودخل ميدان المضاربة ،
فلقى نجاحاً وصادف توفيقاً ، وبخاصة بعد زواجه حتى أنه خلف
ثروة قدرت بخمس وثلاثين ألف من الجنيهات ، وهذا مبلغ
كبير بمعايير ذلك العصر على مهاجر فقير . وقد تزوج في عام
١٧٦٥ من سيدة تنتمى إلى إحدى تلك الأسر اليهودية التي قاست
من الإضطهاد صنوفاً ، فولد ذلك في نفسها شعوراً قوياً من
السخط والاستياء . لقد كان لها من جمالها ومالها وقوة شخصيتها
ما يؤهلها لمركز في المجتمع المذهب ، ولكن حال دون ذلك الدين
الذي نشأت في أحضانه . فاشتد بها السخط ، وودت لو أنها
كانت مسيحية . وعظم بها النفور إذ تزوجت من رجل ينم اسمه
ويفصح عن هذا الدين الكريه إلى نفسها . وتستطيع أن تلمس
الفارق بين الزوجين : فالجد ، كما وصفه حفيده الأشهر ، رجل
متين الخلق ، شديد التفاؤل ، شجاع لا يؤثر فيه الإخفاق ، واسع
الحيلة لا يتقهقر أو يتراجع أمام معاكسات الأيام . وهو إلى
جانب ذلك راض عن عقيدته ، على وفاق مع شيوخ الطائفة ،
يساهم في أمورها بقدر من ماله . أما الجدة فبرمة ساخطة ، أو
هي شيطان لا تدانيها سوى ساره دوقة ملبرو أو ربما كاترين
قيصرة روسيا .

وفي عام ١٧٦٦ ولد لها إسحاق . وهو طفل شاحب اللون ،

شديد الميل إلى حياة التأمل ، عظيم الخجل ، يجد الراحة في
الانفراد والوحدة . خير مكان يأوى إليه دار للكتب ، وخير
رفيق يأنس إليه الكتاب . فلا عجب إذن أن استشعرت
أمه باليأس من ناحيته ومن ناحية مستقبله ، فالصبي لا يبشر
بالنجاح والتوفيق في ميدان الأعمال والتجارة . وهنا استقر
الرأى على إرساله إلى صديق للأسرة في مدينة أمستردام ، فأقام
ثلاث سنوات أكب خلالها على الدرس والقراءة وشغف
بمؤلفات فولتير وتشعب بآراء روسو وسواه من كتاب القرن
الثامن عشر وفلاسفته من ذوى التفكير الحر الثائر على الجمود ،
الخارج على التقاليد البالية . وعاد الصبي إلى إنجلترا وحاول أبوه
أن يوجهه شطر التجارة . ولم تكشف الحقيقة المؤلمة حين علم
أن الصبي يعد قصيدة يحمل فيها على هذه الحرفة ويحملها تبعة
إفساد الجنس البشرى . مرة أخرى يعيشون بالشباب الصغير إلى
فرنسا ، ومرة أخرى يستغل الفرصة فيتصل بذوى الفكر
ويغشى دور الكتب . وأخيراً غادر باريس قبيل أن تبدأ تلك
الأحداث التى ولدت الانفجار الهائل ونعنى بذلك الثورة
الفرنسية . لقد رجع إسحاق قليل المعرفة بالحياة واسع الدراية
بالكتب ، ووضح بما لا يحتمل اللبس والإبهام أن صاحبنا قد
وقع اختياره على الأدب حرفة وهدفاً له فى الحياة ، وكان كما
وصفه ابنه من بعد « شخصية أدبية كاملة ، ورجلاً قضى حياته فى

مكتبته . . . ففي لندن كانت تسليته الوحيدة أن يتجول لدى باعة الكتب ، وإذا دخل نادياً فبقصد الذهاب إلى مكتبة النادي ، وإذا أقام بالريف قلما غادر غرفته . . . وفضلا عن هذا كان من الطراز الهادئ الطباع ، لم تحركه أو تثيره الأحداث الهائلة التي حركت أوروبا في تلك الفترة من تاريخها ، ولذا لا نجد في مراسلاته إشارة إلى تلك الأحداث التاريخية التي غيرت مجرى سير الإنسانية . ولا ريب أنه في هذا جد مخالف لابنه من بعده . غير أننا قد نكشف في الإبن ، الذي شق طريقه إلى المجد وسط العواصف والأعاصير ، ميلا إلى الترفع والعزلة ، وإن خفي ذلك الميل تحت ستار الطموح ، وبفضل ما كان عليه من قوة الإرادة . ولما أدرك إسحاق الخامسة والعشرين من العمر أخرج إلى عالم النشر كتابا دعاه « عجائب الأدب » ، فلقى رواجا سريعا ثم أعقبه بغيره ، ويبدو أنه كانت تجيش في صدره رغبة ملححة في أن يضع تاريخاً للأدب الإنجليزي . وكتب كذلك عن جيمس الأول مدافعا عن ذلك الذي لم ينصفه المؤرخون . ومن الثابت أن هذه المؤلفات أكسبته شهرة واسعة ، وسمعة عالية في الأوساط الأدبية ، وجعلت له معجبين وأصدقاء من أمثال والتر سكوت وبيرون . وبرغم هذه الصلة الأدبية وهذه العلاقة المبنية على الإعجاب المتبادل ، فإن الرجل كان يعيش بنظرات القرن الثامن عشر وأهدافه ومثله ، ولذا لم يكن ممن يميلون إلى حركة

الرومانتيسم Romanticism التي تميز بها القرن التاسع عشر ،
والتي يمثلها لنا سكوت وسوثي ويرون وشلي .

وقد تزوج إسحاق من ماريا باسيفي Maria Basevi صغرى
بنات أحد اليهود الطليان وكان قد وفد إلى إنجلترا حوالى
منتصف القرن الثامن عشر . وكانت زوجة صالحة ، مكبة على
عملها ، مخلصه لزوجها ، محبة لأطفالها ، وإن كان أثرها ضئيلا في
تكوين شخصياتهم .

في وسط هذا الجو وفي أحضان هذه البيئة خرج بنيامين إلى
العالم في منتصف الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢١
ديسمبر سنة ١٨٠٤ وكانت قد سبقته إلى الحياة أخته ساره
قبل ذلك بعامين . وبين الإثنين شبه كبير من حيث الإرادة
القوية والنظرة المتفائلة وحسن الإدراك . ولذا توطدت بينهما
صلة روحية قوية ، ولا عجب أن شعر السياسي الكبير بالأسف
الشديد يوم تحقق أمله وصار رئيسا لوزارة الإمبراطورية
البريطانية لان أخته ساره لم تكن على قيد الحياة تهنه وتباركه
وتفرح له وتدعو له بالتوفيق !

ولما بلغ الطفل السادسة من عمره ألحقه أبوه بمدرسة في
إسليجتون (Islington) تديرها الآنسة روبر (Miss Roper) .
وبعد أن قضى فترة من الوقت انتقل إلى مدرسة أخرى يشرف
عليها أحد رجال الدين المستقلين وهو جون بوتيكاني . وتسود

مدرسته الآراء الحرة ولذا لم يرغب الطفل على حضور الصلاة مع زملائه المسيحيين ، بل كان مصرحاً لأحد رجال الدين الإسرائيليين بالتوجه إلى تلك المدرسة في أيام السبت ليلقن بنيامين وزميلاً آخر له أصول ذلك الدين وطقوسه ورسومه . وليست لدينا معلومات وافية تلقى الضوء الكافي على الطفل وأخلاقه . وكل ما نعلم عنه أنه كان مغرماً إلى حد كبير بقصص اللصوص والمغامرات . شديد الميل إلى الروايات التي يرتفع فيها الخيال ، مليئاً بروح الدعابة والمرح . ونعلم أن كتابيه Vivian Grey ، Contarini Fleming أشبه بقصة حياته يرويها لنا في قالب روائي وأنه في هذين الكتابين يصف أبطاله بأنهم امتازوا في صغرهم بالعنف مع العطف على الغير ، وأنهم حاولوا تزعم أترابهم في المدرسة وإن بدا عليهم أحياناً ميل قليل إلى الوحدة والانفراد فضلاً عن أنهم كانوا ممن يسبحون في عالم الأمانى والأحلام ، ويقىمون قصوراً شاهقة في الهواء . ويحدثنا أخ لبنيامين أن الطفل كثيراً ما تخيل نفسه من أعضاء البرلمان البارزين ويتحدث بلسان الحكومة !

غير أن إقامته في هذه المدرسة كانت لها صورة أخرى قائمة في نفسه . فهو يتكلم الإنجليزية ويكتب بها ، وهو أشد ذكاء وأوفر علماً من زملائه . ومع ذلك فإنهم لا يعدونه إنجليزياً مثلهم ! وهو لا يشترك معهم في الصلوات ، وهو كذلك ينفرد

عنهم في يوم السبت من كل أسبوع في صحبة زميل كرهه إلى نفسه . هذا كله بعثه على التفكير ! بل إنه كان يحدث أخته ساره في نفس الأمر وكلاهما في عجب مقرون بالألم والمرارة ، لأن هذا الدين الذي يضعهما في ذلك الوضع قد فرض عليهما فرضاً بحكم الوراثة ، وليس لهما دخل في الأمر شأنهما في ذلك شأن بقية الأطفال .

وأخيراً في عام ١٨١٦ حدث أمر ستبدى الأيام أهميته القصوى ، إذ مات الجد . وهنا يقع التحول في مجرى حياة الأسرة . لقد كان إسحاق — بخلاف أبيه — لا يؤمن كثيراً في قرارة نفسه بتلك الطقوس التي يمتاز بها دين إسرائيل ، وينفر من رسومه الجامدة . وليس هذا بغريب عليه وهو من تلاميذ مدرسة قولتير بصفة خاصة . ولم يكن يتصل بأفراد الطائفة ورؤسائها الروحانيين بخلاف أبيه . ولكن تصادف أن نشب بينه وبينهم نزاع ففرضوا عليه غرامة قدرها أربعون جنيهًا أي دفعها . وقفت الأمور عند هذا الحد ، فلما عاد مجلس الطائفة بعد سنوات يطالبه بالدفع عظم استياؤه وهنا أشار عليه صديقه المؤرخ شارون تيرنر أن يتحول إلى المسيحية وأقنعه أن ذلك في صالح الأولاد . عمل الوالد بالنصيحة . وبذا بدت احتمالات المستقبل لامعة .

انتقل الصغير إلى مدرسة أخرى . وهنا دخلها وقد نبذ ذلك

الدين الذى يجعله غريباً عنهم وما لبث أن أثبت تفوقه على سواه بفضل معلوماته الوفيرة وأصبحت أقواله وأمثاله على كل لسان، وأحاطت به فئة من التلاميذ كأنما تعدّه زعيماً لها وتستمد منه الوحي والإلهام. غير أن هذا المركز الممتاز أحفظ عليه قلوب عرفاء المدرسة الذين أدركوا أن هذا الدخيل خطر على سلطانهم ونفوذهم. أما هو فلم يعبأ بالأمر أو قل لم يخطر له على بال. وكان إذا تمشى خيل إليه أنه قائد جيش عظيم أو رئيس للوزارة. اشتدت غيرة العرفاء، وصمموا على النضال. وهنا سخر أحدهم منه واشتبك الصغيران فى معركة حامية أشفق زملاء بنيامين والمعجبون به عليه من عاقبتها. ولكننا نرى فى هذه المعركة المدرسية البسيطة صورة مصغرة من السياسى القوى المناضل. فقد انتهت بفوز دزرائيلى الصغير مما كان مثار الدهشة. وكيف تم هذا؟ وكيف استطاع أن يغلب غريباً أكبر منه سناً وأوفر قوة؟ لأنه كان يقاتل بطريقة علمية وبشجاعة هائلة! إن بنيامين الطفل، كدزرائيلى السياسى، لا يناضل إلا بعد أن يتخذ أهبطه للمعركة. وكان بنيامين الطفل قد تمرن على الملاكمة ثلاث سنوات قبل ذلك اليوم. وحققت نتيجة المعركة بعد نظره. غير أن الفوز كان له ثمنه، ذلك أن مدير المدرسة رجا إسحاق أن يصحب ابنه معه لأن بيئة المدرسة وتقاليدها ليست له!

الفصل الثاني

ذهاب مع الربيع

خرج دزرائيلي من المدرسة في سن الخامسة عشرة لا يدري ماذا يفعل لأنه لا يعلم غايته في الحياة على وجه التحديد . فقضى وقتاً يحاول تثقيف نفسه واكتساب المعلومات ، ووجد في مكتبة والده الثمينة ما يروى غلته ويشبع نهمه ، وأخيراً أشير على أبيه أن يلحقه بمكتب أحد المحامين . ولما عرضت الفكرة على بنيامين سخر منها ، لأن معنى هذا أن يتنازل عن أمله في أن يكون من عظماء الرجال . ولكن أباه حذره من العجلة ، وأبان له أنه إذا كان يسعى إلى المجد فعليه أن يزيد درايته بأخلاق الناس وطباعهم وأقنعه أن عمله الجديد قيم أن يهيء له سبيل تلك المعرفة . اقتنع الابن وقبل العمل الجريد ، وهناك في داخل حجرات المكتب وفي السجلات المكدسة مرت أمامه صور متباينة وتكشفت له أخلاق وصفات . وهكذا وجد النافذة التي يطل منها على جانب من ذلك المجتمع الذي يسعى إلى السيطرة عليه . وفي أثناء العمل تعرف إلى زميله ايثانس كما استطاع أن يلمس بعض نواحي عالم المال وأن يشهد بعينيه كيف تقطن الأموال وكيف تتضخم

الثروات ، وكيف يحصل بعض الأفراد على القوة الاقتصادية
أو السلاح السحري الذي يأتي إليهم بالنفوذ والسلطان .
وكانت المضاربة في أسهم مناجم المستعمرات الإسبانية
بأمريكا قد بلغت غايتها ، وتملكت القوم روح المغامرة . وخيل
إلى الكثيرين أن استغلال هذه المستعمرات سينقلهم من الفقر
إلى الثراء ووجدوا مشجعاً في سياسة وزير خارجيتهم كاتنج الذي
اتجهت أعماله صوب غاية واحدة هي تحقيق استقلال هذه
الممتلكات الشائنة حتى يحول بين فرنسا أو غيرها وبين التدخل
في شؤون العالم الجديد حيث لانيجلترا مصالح اقتصادية كبيرة .
انتهز دزرائيلي وزميله الفرصة ودخلا في ميدان المضاربة أسوة
بغيرهما ، فخافهما التوفيق وخرجا من الأمر وقد تكبدا خسائر
فادحة . وفي تلك الأثناء تعرف دزرائيلي إلى باولس Powles
أحد كبار رجال المال . واستطاع هذا الأخير أن يكشف مواهب
الشباب فأراد أن يستغلها أحسن استغلال . ذلك أن ارتفاع
درجة حمى المغامرة جعل الكثيرين يوجسون خيفة من العواقب
ويتوقعون أن يعقب ذلك انهيار مفاجيء يذهب بأموال الناس .
وعلت صيحة تدعو إلى ضرورة تدخل الحكومة قبل أن تحل
الكارثة . ولكن هذا التدخل يحد بطبيعة الحال من نشاط
الشركات والمؤسسات التي تسمن على اتجاه الجمهور والتي لا يضيرها
أعاد الأمر بالغنم أم بالغرم على صغار المستثمرين ، وهنا عهد

باولس إلى دزرائيلي أن يضع كتيباً يوضح أمر هذه المشروعات القائمة في العالم الجديد. ودزرائيلي قليل الدراية — إن لم يكن عديماً — بهذه المسائل الهندسية والفنية. ولكنه أقبل على العمل بكل ما أوتي من قوة وحماس، واستطاع بعد قليل أن يحمل الناشر موراي أن يخرج له مؤلفه الصغير الذي لقي نجاحاً كبيراً وصدرت منه بضعة طبعات في فترة وجيزة. ولا ريب أن هذا النجاح مرده إلى متانة أسلوب الكاتب وحججه القوية وعباراته الرنانة وألفاظه الحماسية. وقد حمل فيه على سياسة التدخل وخاطب المسؤولين ألا يقرروا أمراً إلا بعد الدراسة الوافية، ونصحهم ألا يتأثروا بروايات ومخاوف لا نصيب لها من الصحة، وألا يصدروا تشريعات تحد من حرية هذه المشاريع أو تمنعها.

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه تابع ذلك بمؤلفات من نفس الطراز وبنفس الأسلوب، وإن كانت جميعها قد نشرت دون أن تحمل اسم واضعها. وكان للناشر موراي مجلة تدعى Quarterley Review ولكنه يطمع أن يصدر صحيفة يومية على غرار التيمس ولها نفس المكانة في المجتمع الإنجليزي. وقد فاتح دزرائيلي الذي تحمس للفكرة، وداعب خياله مشروع إنشاء صحيفة يومية كبرى تنطق بلسان حزب المحافظين. أليس هذا ما يتمناه؟ أليس هذا سبيل الشهرة وطريق المجد؟ ولكن موراي معروف بتردده. غير أن التردد تضائل ثم زال إزاء حماسة

دزرائيلي وحججه وبراهينه وأسلوبه في الإقناع ، وهنا تبدأ أمر رحلة
 العمل الجدى لإخراج المشروع إلى حيز التنفيذ ، وصار من المتعين
 اختيار رئيس للتحرير له سمعة تكفل النجاح ، ووقع الاختيار
 على لو كهارت زوج ابنة الكاتب الكبير سير والتر سكوت ، وعهد
 إلى دزرائيلي بمهمة إقناع الرجل . فلم يتردد أو ينكص على عقبيه
 بل سافر توا إلى أبوتسفورد حيث استقبله لو كهارت الذى لم
 يكن ليخطر فى باله أن زائره هو ذلك الشاب الذى كان يتحدث
 على شاكلة من يكبره بعشر سنوات . طرق دزرائيلي الموضوع
 وأقام هيكلًا ضخماً من الفكرة ، وحلق عالياً فى عالم الآمال وأبرز
 من المشروع غاية سامية ، ولم يدع اعتراضاً الا واجهه أو حجة
 إلا قرعها بمثلها حتى تغلب فى النهاية على تردد مضيفه ، وفى خلال
 إقامته التى طالت إلى ثلاثة أسابيع تعرف إلى سير والتر سكوت
 الذى أعجب به إعجاباً كبيراً . وفى الحق لقد استحوذ الشاب
 على أفئدة الجميع وسحرهم بلباقته وحسن بيانه ، وقضى فترة من
 أسعد الأوقات ينصت إلى الروائى الخالد الذكر ويشنف سمعه
 بالأغاني تعزفها ابنته ، وأخيراً تم الاتفاق على أن يتولى لو كهارت
 رئاسة تحرير المجلة والصحيفة اليومية مقابل أجر قدره ألفان
 وخمسمائة من الجنيهات فى السنة . فقل دزرائيلي راجعاً إلى لندن ،
 خوراً أن وفق فى أداء مهمته ، مزهواً بما تراهى أمام عينيه من
 صور وخيالات . ولم يضع وقتاً فى الإعداد فاستأجر مكتباً وداراً

للطباعة... لقد أصبح كل شيء على تمام الأهمية: المكان في حي
 معروف، ورئيس التحرير من ذوى الشهرة، والمال سيقدم موراي
 نصفه ويؤدى النصف الآخر باولس ودرزائيلي وإن كان الأخير
 لا يدرى كيف يدبر نصيبه. يا له من أمل سرعان ما تحطم!
 وياله من حلم ليلة صيف تبدد! لقد وقعت الواقعة التي أنذر بها
 الكثيرون وحلت الكارثة المالية بانهميار سوق الأوراق المالية
 وهبطت أسعار الأسهم والسندات الأمريكية وضاعت ثروة
 باولس، أما موراي فقد تعرض للسخط من جانب أحد عملائه
 الذي اتهمه بالعمل دون استشارته. وعلى هذا النحو أخفق المشروع.
 تحطمت آمال الشاب وذهبت مع الريح ولم تفده كذلك
 مؤلفاته عن الشركات إذ أفقدته المضاربة سبعة آلاف من
 الجنيهات وخرج من العملية مثقلا بديون باهظة... يا لقسوة
 الحياة! ويا لسخرية القدر! أليس من الخير أن يخرج من هذا
 العالم الذى لم ينله منه سوى الألم؟ لقد فكر فى هذا فعلا.
 ولكنه عدل. لقد ذاق مرارة الخيبة فى اللحظة الحاسمة التى
 خيل إليه فيها أنه يوشك أن يجتاز باب النجاح، إنه درس قاس
 ولكنه ضرورى لكل من يريد أن يشق طريقه فى الحياة. لقد
 تعلم وذرزائيلي ولن ينس ما علمته الأيام.
 ما الذى يعمله الآن وقد فقد أصدقاءه وماله وسمعته وآماله؟
 ليكتب إذن قصة بطلها يشابهه من حيث النشأة والغاية والجهد

والنهاية . وهكذا خرج على الناس بعد أربعة أشهر بروايته
 فيفيان جراى (Vivian Grey) ، وكان فيفيان جراى بطل الرواية
 ابناً لأحد رجال الأدب المعروفين ، وامتاز بذلك أكثر من سنه
 وقد قضى فترة عاصفة عنيفة في المدرسة خرج بعدها حيث واصل
 دراسته الخاصة وأضنى نفسه في ذلك ، فلما أدرك العشرين من
 عمره تطلع حوله عسى أن يجد الوسيلة التي تهيه له تحقيق
 أطماعه . لم يكن تنقصه القوة العقلية ولكن أعوزه نفوذ أحد
 النبلاء ، وقد وفق إلى ضالته في شخص الماركيز كاراباس وهو
 رجل ضعيف مغرور وإن كان طموحاً في الوقت ذاته ، استطاع
 صاحبنا الشاب أن يسحر النبيل بكائه ولباقة ثم توجه لزيارته
 في قصره الريفى حيث وجد جماعة من أصدقائه . وهناك
 اتفق على تأليف حزب ووقع الاختيار على فيفيان جراى كي
 يتوجه إلى ويلز حيث يطلب إلى السياسى الناشئ كليفلاند أن
 يصحبه . وقد نجح في أداء رسالته وعاد مصحوباً بالرجل . غير
 أن المرأة تدخلت في الأمر وأفسدته ، ولعبت الخيانة والوشاية
 والأغراض دورها ، واشتبك فيفيان في مبارزة مع كليفلاند
 أفقدت الأخير حياته وذهب البطل على أثرها إلى ألمانيا يمسك أطماعه
 المحطمة ويعيش فريسة للندم المرير ... هذه خلاصة موجزة للقصة
 وتستطيع أن تلمس فيها بعض نواحي حياة دزرائيل إلى حين
 اختلف مع موراي بعد إخفاق مشروع الصحيفة اليومية .

وكانت أسرة أوستن مجاورة لآل دزرائيلي. والسيدة أوستن ذات جمال بارع وذات مواهب عقلية تسمو على المستوى العادى ، وتجيش فى صدرها رغبة جامحة فى أن تصبح من النجوم التى تلمع فى سماء مجتمع لندن . وكانت فى الوقت ذاته متعطشة إلى الملوك والاعجاب ، ينفتح قلبها للتناء . وقد أبدت اهتماماً خاصاً بذلك الشاب الذى كانت تراه أثناء زياراتها لأهله غارقاً بين أكاداس الكتب والمؤلفات ثم يدخل عليها بعد ذلك بمحياته الجميل وهو غاية فى الرشاقة والتأنق . وكان هو نفسه يأنس إلى صحبتها ويجد اللذة فى الجلوس إليها والتحدث معها . فلما أتم قصته أفضى إليها بالأمر ورجاها أن تطالعها فقبلت فرحة راضية وقضت فى قراءتها ليلة كاملة . فلما أصبح اليوم التالى كتبت مهنمة مشجعة وأصرت على ضرورة نشرها واتفقت على أن يتم ذلك دون ذكر اسم المؤلف وأخفى المتآمرون الأمر عن أى إنسان ، حتى عن الناشر كولبرن الذى أخذ على عاتقه إبراز القصة إلى الجمهور . وحتى لا يتسرب خبر الموضوع نسخت مسز أوستن الرواية بخط يدها . أما كولبرن فقد كان من نوابغ الناشرين ومن أعظم الدعاة وقام بدعاية واسعة النطاق عن القصة التى ستتهز مجتمع لندن والتى تعرض صوراً من الشخصيات الكبيرة لا عداد لها . أثار ذلك الفضول والاهتمام ، وأخذ القوم يراهنون على أسماء معينة تناولها المكاتب المجهول . ولا نشك ان دزرائيلي كان

طربا لهذا وهو الذى كان يميل إلى قراءة القصص والأساطير
 الخفية وأخبار المؤامرات الغامضة . وأخيراً صدرت القصة
 وصارت حديث النوادي والصالونات . وفى وسط هذه الموجة
 العالمية حلت الكارثة إذ عرف الناس شخصية المؤلف واسمه
 بسبب زلة لسان ممن له اتصال بالعمل . غضبت لندن ، وهكذا
 شأن الناس جميعاً تخدعهم المظاهر وتغرهم الأسماء ويهرهم المظهر
 ولا يعنهم الجوهر . وحملت الصحف على دزرائيلى ، واتهمه
 الكتاب بالدجل والخداع واستغلال بساطة الناس وحسن
 طويتهم . كانت هذه التهم الباطلة أقسى على نفسه من إخفاق
 مشروع الصحيفة أو خسارته المالية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد
 بل إن موراي غضب غضبا شديداً وسخط على أسرة دزرائيلى
 كلها إذ اعتقد أن الشاب يعنيه ويظهره على صورة المركز كاراباس .
 تأثرت صحة دزرائيلى ، وهنا وصلته دعوة من آل أوستن كي
 يصحبهم فى رحلة إلى سويسرا وشمالي إيطاليا ليقبلها شاكرًا إذ تتيح له
 فرصة الاستجمام بعد مجهود مضن ، والابتعاد عن جو مؤلم . واصل
 دزرائيلى إرسال الخطابات إلى والده وأخته وفيها تبرز لنا ناحية
 منه تلك هى قوة الملاحظة لكل ما حوله من صور وأشكال ودقة
 الوصف والتصوير . فهو يصف لنا الطريق الذى يمر به بطريقة
 واقعية تجعل كل شئ يتراى مجسما واضحا أمام أعيننا . وأخيراً
 عادت الجماعة إلى الوطن بعد أن كلفته الرحلة مائة وخمسين جنيهًا .

الفصل الثالث

الاستقلال عن الأهراب

رجع دزرائيلي من رحلته بالشرق وقد استعاد صحته ونشاطه وامتلات نفسه شجاعة وأملا . وأثرت إقامته في الشرق في نظرته إلى المستقبل ، وأخذ يفكر في الاشتغال بالسياسة ، وكان خلال رحلته يتابع باهتمام ظاهر الاضطراب السائد في إنجلترا بصدد حركة الإصلاح النيابي .

استطاعت إنجلترا في عصر التيودور أن تحطم مخلفات العصور الوسطى من امتيازات الأشراف والكنيسة ، وأن تؤكد سيادة التاج في البرلمان ، وفي عهد أسرة استيوارت زاد نفوذ البرلمان واقتسم هذه السيادة مع التاج ، وفي الوقت ذاته سلم مبدأ الحكومة المحلية من الاعتداء . أما في القرن الثامن عشر فقد أصبح البرلمان في الحقيقة المسيطر على الأداة التنفيذية وذلك عن طريق النظام الوزاري . هذا التطور الدستوري الذي ميز إنجلترا عن دول القارة الأوروبية لم يحقق الديمقراطية السياسية ، إذ ظل النفوذ الفعلي في السلطتين التشريعية والتنفيذية إحتكاراً لأقلية من الأشراف وملاك الأراضى . وجهد هؤلاء في الإبقاء على احتكارهم هذا برغم تغير الأحوال وتبدل الظروف . ذلك

أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر شاهد تلك التغييرات التي اصطاح الناس على تسميتها بالثورة الصناعية ، والتي تحولت بمقتضاها إنجلترا من دولة زراعية إلى دولة صناعية ، وعظم إنتاجها الصناعي وزادت ثروتها حتى تمكنت من الصمود في حروبها مع فرنسا منذ عام ١٧٩٣ إلى حين القضاء على نابليون . وقد خلقت هذه الثورة طبقة جديدة من رجال الصناعة ، كما أدت إلى قيام المدن الصناعية وتركز العمال فيها . وهذا الثراء الذي ترتب على هذا التحول الجديد لم يصحبه نظام عادل لتوزيع هذه الأموال التي تتراكم يوماً بعد يوم ، وزادت حالة الطبقة العاملة سوءاً وهبطت أجورها ، وخاصة بعد انتهاء الصراع الأوربي ، وانتشرت البطالة إلى حد كبير ، بل وكان كل اختراع جديد يزيد من شدتها . وهنا أخذ كثيرون من أهل الفكر يطالبون بالتشريعات اللازمة لضمان العدالة الاجتماعية ، كما قويت الدعوة إلى إصلاح نظام الانتخاب الذي لم يتغير منذ القرن الرابع عشر . غير أن جماعة التوري التي كسبت الحرب لانجلترا عجزت عن إدراك التحول الذي طرأ على البلاد واعتبرت كل محاولة للإصلاح النيابي عملاً غير مشروع ، وفتنة تهدد البلاد بالخطر ، ونذيراً بأن تشاهد إنجلترا صورة أخرى من الثورة الفرنسية . وهذا القصور من جانب التوري كان في صالح الحزب الآخر أي جماعة الهويج وأخذت سمعتهم تعلو في البلاد برغم أنهم أقلية في البرلمان . أما

الطبقة الوسطى من رجال الصناعة والتجارة فساءهم أن القوة الاقتصادية التي يملكونها ليست لها أهمية كبرى بسبب نقص النظام الانتخابي ، فشاركوا الطبقة العاملة في المطالبة بالإصلاح وانضموا إلى حزب الهويج المطالب به وزادوه قوة . أما الحزب فجعل اعتماده على رجال هذه الطبقة . وبذا ظل عهدا طويلا يفترون اسمه بها مما سيعطى خصومه الفرصة على يد دزرائيلي في المستقبل .

اشتد الاضطراب في البلاد في خريف عام ١٨٣٠ وأصبح المجتمع على وشك الانحلال^(١) بسبب البؤس الاقتصادي والفقر والفقر والجوع وظلم الطبقات الغنية . وحدث أن سقطت وزارة ولنجتون في نوفمبر سنة ١٨٣٠ وتألقت وزارة لورد جراي ، وتضم الهويج مع ذلك الفريق من التوري الذي انحاز إلى قضية الإصلاح . وبعد صراع عنيف في داخل البرلمان وخارجه ، وبعد فضال من جانب مجلس اللوردات بصفة خاصة صدر قانون الإصلاح في عام ١٨٣٢ فكان فاتحة لعهد جديد .

قرر دزرائيلي أن يتقدم للإنتخابات عن دائرة High Wycombe بصفته مستقلا عن الأحزاب لأنه لم يستقر بعد على الحزب الذي ينتمى إليه . غير أن الدائرة خلت من ممثليها قبل

G. M. Trevelyan : History of the Nineteenth Century (١) and After, p. 230.

إجراء الانتخابات العامة ، وهكذا تقدم في ظل القانون القديم منافسا للكلونيل جرای ابن رئیس الوزراء ، لأن الدائرة ملك لحزب الهویج . أعلن المرشح أنه من الراديكاليين لأن « مبادئ التوری قد بليت ، ولا أستطيع أن أنزل إلى مستوى الهویج . » . وهناك ألقى خطاباً رائعاً ظل حديث القوم عهداً طويلاً . وكان أنصار التوری يؤيدونه لأنه مستقل ، وإذن فهو خير من نائب يمثل خصومهم السياسيين ، ولأن أباه معروف بميله إلى حزبهم . وفي خطابه هذا أعلن أنه يتقدم إليهم مستقلاً عن جميع الأحزاب وأنه لا يعتبر قانون الإصلاح غاية في ذاته وإنما يعده وسيلة لتحقيق إصلاحات مالية وكنسية وقضائية كبيرة ، ولأول مرة في ذلك العصر سمع الناضبون مرشحاً يقول : إن برنامجي ينحصر في العمل على تحسين حالة الفقراء لأنه نشأ من أسرة متواضعة لا تمت إلى الأرستقراطية بصلة . ولكن الخطب والبرامج لم تكن لتكسب الدوائر . ولما ظهرت نتيجة الانتخاب أحرز إثني عشر صوتاً ، بينما نال خصمه عشرين صوتاً وصار من النواب . هكذا غلب على أمره ولكنه انتقم لنفسه بخطاب قال فيه : « لقد أبعدني الهویج وسيندمون على ذلك » .

أصبحت الانتخابات العامة على الأبواب وحل مجلس العموم في ٣ ديسمبر ، ولكن دزرائيلي كان مصمماً أن يبدأ المعركة قبل ذلك ، ولذا أصدر في أول أكتوبر منشوراً بسط فيه برنامجه

وأهدافه ، فهو رجل لا يحمل شارة الحزبية ، وهو مستعد لتأييد
 أى نظام للتصويت يقضى على المفساد القائمة ، وهو يطالب
 بالعناية بتعليم الشعب ، ثم يصرح أنه على استعداد لتأييد سياسة
 الاقتصاد فى النفقات وخفض الضرائب إلى أدنى حد يتفق
 والصالح العام ، ولكنه فى الوقت نفسه ان يناصر وزارة لا تبتكر
 المشروعات التى تؤدى إلى تحسين حالة الطبقات الدنيا ، وإثارة
 نشاط البلاد ، وتحرير الصناعة من القيود التى تكبلها ، واستعادة
 سمعة البلاد الآخذة فى الانحطاط « أما عن قوانين الغلال فإنه
 » من أنصار أى تغيير يخفف عن المستهلك دون إلحاق الأذى
 بالزارع ، ثم نراه يحمل حملة شعواء على حزب الهويج الذى
 سلب الحكم بوعود باطلة وعمل خلال حكمه على زعزعة أركان
 الإمبراطورية : أليست ارلنده فى ثورة ، والمستعمرات فى
 اضطراب ، وعلاقات البلاد الخارجية فى ارتباك شديد ، والفلاح
 فى حالة من الشك ، وصاحب السفن يملأ نفسه الريب ، والتجار
 يشكون ، والصناع لا يجدون أسواقاً لمصنوعاتهم وإيراد الحكومة
 فى تناقص مستمر ؟ ثم يخاطب الشعب داعياً إياه أن ينبذ تلك
 الأسماء التى ألفها لأنها تمثل أحزاباً تعمل على خداعه والتغريب به
 ثم يقول « اتحدوا فى سبيل تكوين حزب قومى عظيم يستطيع
 إنقاذ البلاد من الدمار الذى يوشك أن يحل بها » ولما اتهمه
 خصومه أنه محافظ متستر رد عليهم فى خطاب آخر يقول : إنه

محافظ فعلا بالمعنى الحقيقي ألا وهو الإبقاء على خير ما في دستور البلاد ونظمها ، كما أنه راديكالي يسعى إلى القضاء على ما في هذا الدستور من عيوب وشوائب . ولكن الهويج وحدوا جهودهم ضده ، ولما ظهرت النتيجة بنجح منافسائه وأخفق هو للمرة الثانية^(١) . وعلى أثر ذلك أصدر مؤلفا صغيراً عنوانه (What is He) وفيه يحيد فكرة تكوين حزب قومي ويشرح المبادئ التي يمكن على أساسها قيام ذلك الحزب ، وبما جاء في الكتاب قوله « إن الغرض الأول للسياسي هو حكومة قوية إذ بدون ذلك ينعدم الاستقرار .. فما الوسائل التي تمهد لنا قيام هذه الحكومة القوية ؟ يتعين علينا الكشف عن المبادئ التي يمكن إقامة هذه الحكومة عليها . ويجب علينا إما أن نعود إلى المبدأ الأرستقراطي وإما أن نسير قدماً نحو المبدأ الديموقراطي . وأرى أن مبدأ الحكومة الأرستقراطية قد قضى عليه بالفناء منذ اللحظة التي أقر فيها مجلس اللوردات قانون الإصلاح بدافع الخوف لا نتيجة الإيمان به ، ومنذ تلك اللحظة تعين على أرباب الأملاك وذوى المواهب وأهل العلم أن يوجهوا جهودهم نحو تنمية المبدأ الديموقراطي . » .

لقد نال الهويج أغلبية كبيرة في الانتخابات وألفوا حكومة منهم ، وامتازت السنوات الثلاث التالية لصدور قانون الإصلاح بتشريعات كثيرة لصالح المجتمع ، وذلك في ظل المبادئ التي

(١) كانت النتيجة كما يلي : سميث ١٧٩ ، جرای ١٤٠ ، دزرائيلي ١١٩ .

نادى بها الفيلسوف بنتام الذى عاش فيما بين ١٧٤٨ ، ١٨٣٢ .
وقد كان للرجل أكبر الأثر فى التفكير الإنجليزى . فهو يرى أن
أعظم قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس هو أساس المثل
الأخلاقية والتشريع ، وهذا ما عرف باسم « مذهب المنفعة »
(Doctrine of Utility) ، ولكن الوزارة عجزت عن معالجة
المسألة المالية وهذا أعطى سلاحاً لخصومها بزعمه سيرة روبرت بيل
الذى وقف لها بالمرصاد يتتبع أعمالها ويقيّد أخطأها . وكان
بيل قد استطاع أن يجمع الأنصار ويؤلف ما بينهم واتخذ اسم
« المحافظين » بدلا من « التورى » لأن التسمية الأخيرة ارتبطت
فى أذهان الناس بمعارضة هذا الحزب لحركة الإصلاح . غير أن
الشقاق دب فى صفوف الوزارة ثم قدم لورد جراى استقالته فى
عام ١٨٣٤ وخلفه أحد رجال حزبه وهو لورد ملبورن (بعد
أن عجز بيل عن تأليف وزارة إذ لم يستطع حين أجرى
الانتخابات أن يحرز أغلبية يستند إليها) .

وفى فترة الاضطراب التى صحبت استدعاء بيل لتأليف
الوزارة دخل دزرائيل المعركة الانتخابية فى نفس الدائرة للمرة
الثالثة أمام منافسيه السابقين كذلك ، وألقى خطاباً أعلن فيه أن
برنامجهم ينحصر فى مديد المساعدة لأصحاب المصالح الزراعية ،
تحسين أحوال الكنيسة ، معالجة المشكلة الأيرلندية فى أسرع
وقت ، منح التسامح الدينى للمخالفين إلى الحد الذى يتفق مع

دستور البلاد القائم ، إصلاح الهيئات البلدية حتى تستطيع أداء واجبها على الوجه الأكمل . وقد ختم خطابه بالعبارات التالية :
 ، والحق — أيها السادة — إن السيناسي وليد عصره وثمره الظروف والأيام التي يعيش فيها . إن السيناسي هو شخصية ذات طابع عملي فإذا ما دعى إلى تولى مقاليد الأمور فليس عليه أن يبحث عن رأي بصدد هذا الأمر أو ذاك ، وإنما عليه أن يتأكد أن ما يجب عمله هو ما تمس الحاجة إليه وما يعود بالنفع والمصلحة .
 ولا ريب أن هذه عبارات جريئة جدية أن يتدبر المرء مغزاها .
 وللمرة الثالثة أخفق المرشح المستقل إذ ظهرت نتيجة الانتخابات على الوجه الآتي :

سميث ٢٨٩ جرای ١٤٧ دزرائيلي ١٢٨

وقد علق على هذه النتيجة في خطاب ألقاه في اجتماع أعداء المحافظون فقال : إني لا أشعر بأى حال من الأحوال أنى رجل غلب على أمره ، ولعل هذا لأنى تعودت مثل هذا الأمر .
 وإني لأكرر لنفسى ما قاله ذلك القائد الإيطالى حين سئل بعد أن تقدمت به السن عن السر في انتصاراته الدائمة ، بأنه كان يغلب دائما في أيام شبابه .

هكذا تقدم دزرائيلي إلى المعركة الانتخابية ثلاث مرات في سنوات قلائل فلم يوفق إلى النجاح ودخول مجلس العموم ، وما ذلك إلا لأنه أراد الخروج على تقاليد البلاد بالتقدم مستقلا

عن الأحزاب . لقد كان يقول للناس : إنه لا يلبس شارة الحزبية
 فيعجبون ببلاغته وأسلوبه ، ويتأثرون بإلقائه ويرحبون ببرناجه
 وأهدافه ، ولكن عندما تظهر النتيجة يغلبه منافسوه الذين تؤيدهم
 أحزابهم . وهنا أدرك — ولعل ذلك بعد فشله في المرة الثانية —
 أن من الواجب عليه أن ينطوى تحت لواء أحد الحزبين
 الكبيرين . ولعل تردد الرجل كان راجعا إلى أنه لا يؤمن في
 قرارة نفسه أنهما يسعيان إلى هدف عظيم أو غاية سامية ، أو
 لعله كان ينفر من العمل تحت زعامة غيره حتى ولو كان سير
 روبرت بيل نفسه . ولكن الظروف كانت أقوى من إرادته
 وأشد أثرا من قوته . وإذا تعين عليه اختيار أحد المعسكرين
 انحاز إلى جانب المحافظين لأنه يأمل أن يهذبهم ويعلمهم أداء
 رسالتهم بالمعنى الذي يفهمه . وستحقق الأيام أمله ولكن بعد
 انقضاء الوقت الكافي .

الفصل الرابع

عضو البرلمان

رأينا كيف حاول دزرائيلي أن يشق طريقه إلى الحياة السياسية بعيداً عن الأحزاب القائمة، ورأينا كيف كان مصير هذه المحاولة . ولا بد أنه اعتقد ضرورة السير في اتجاه جديد ، ولكنه رأى من الواجب أن يوضح هذا التحول وسببه ، وأن يقنع الناس بصواب ما يعتزم الإقدام عليه ، وأن تطمئن نفسه إلى خطته الجديدة ، وهنا نشر في عام ١٨٣٥ مؤلفاً صغيراً

عنوانه Vindication of the English Constitution in a Letter to a Noble and Learned Lord . وقد استهل بحثه بهجوم عنيف قوى العبارة على خصومه من أنصار مذهب المنفعة ، وعلى ماجروا عليه من الإنغماس في الآراء النظرية يحاولون استخدامها في وضع نظم سياسية ودساتير جديدة لا تستند إلى الواقع العملي ولا تتمشى مع التطور التاريخي . ذلك أن للشعوب شخصياتها وطبائعها الخاصة بها ، شأنها في ذلك شأن الأفراد . كما أن هذا الاحترام للسوابق ، وهذا التمسك بأهداب التقاليد ، وهذا الإجلال للقديم ، مما يهزأ به كثيراً نفر من أصحاب

العقول المصابة بالغرور ، وذوى التفكير السطحي ، ... إنما يبدو
 فى نظر المؤلف قائماً على إدراك عميق للطبيعة البشرية ، ومعنى
 هذا أن العلم النظرى وحده ليس كافياً لصياغة نظم الحكم التى
 يكفل لها البقاء والاستقرار وتستطيع مواجهة مطالب الشعوب .
 يفتقل دزرائيلى بعد ذلك إلى مسألة تمثيل الطبقات المنفصل ،
 ويبين لنا أن التوازن الذى يتميز به الدستور إنما يتركز على أساس
 المحافظة على مختلف حقوق هذه الطبقات . ولا شك أنه بهذا
 يهاجم جماعة الراديكاليين الفلاسفة الذين حملوا على مجلس اللوردات
 وطالبوا بإلغائه . وتقوم حجة المؤلف على أن مجلس العموم
 لا يمثل الشعب فى الواقع أكثر مما يمثله مجلس اللوردات ، وذلك
 لأن مجلس العموم لا يعبر إلا عن أصوات الذين لهم حق الانتخاب
 وهؤلاء - حسب قانون الإصلاح النيابى - لم يزد عددهم عن
 ثلاثمائة أو أربعمائة ألف . أما مجلس اللوردات ، فبرغم أنه
 لا يستند إلى مبدأ الانتخاب ، فانه أبرز مثل على التمثيل بدون
 الانتخاب ، لأنه فى الحقيقة يمثل الكنيسة والقانون والمقاطعات
 والمدن وزعماء الشعب الوريثيين وبخاصة ملاك الأراضى وهم
 العنصر الحقيقى الدائم من الشعب الإنجليزى . ومجلس اللوردات
 هذا أحد دعائم السلطة التشريعية ، وقد أظهر قدراً كبيراً من القوة
 والنشاط مدى خمسة قرون بحيث لا يوجد سياسى يستطيع أن
 ينكر أن هذا المجلس قد ساهم بنصيب وافر فى استقرار الأنظمة

الإنجليزية . وفضلا عن هذا فقد احتفظت طبقة الأشراف في إنجلترا بولاء مختلف طبقات الشعب لها ، وذلك لأنها ذات طابع ديموقراطي إذ لم تهبط إلى مستوى فئة منحلة فاسدة يشعر الشعب إزاءها بالحق والكراهية . إن المساواة المدنية هي أساس البناء الاجتماعي ، وهذا هو المبدأ العظيم الذي وضع النبلاء على رأس الشعب وأعطاهم محل القيادة ، وملا صفوف مجلس العموم بأعضاء يمتون إلى الأشراف بأوثق صلات الرحم والدم .

وعلى هذا لا نجد هذه الطبقات ، مهما كانت امتيازاتها ، تعيش بمنأى عن بقية الشعب أو تعد نفسها أسمى منه ، الأمر الذي جعل من أشراف إنجلترا ونوابها أمناء على الشعب الإنجليزي ، ولم يجعل منهم سادة له يسيطرون على مصائره . وإذا انتهى المؤلف من هذا التعليل انتقد قانون الإصلاح النيابي الصادر في سنة ١٨٣٢ وطالب بتوسيع قواعده وأأسسه حتى يصبح مجلس العموم أقرب إلى تمثيل الشعب تمثيلا حقيقيا .

انتقل دزرائيلي بعد ذلك إلى تتبع تاريخ الأحزاب البريطانية فقال : إن هدف حزب الهويج كان على الدوام قلب توازن الدستور ومهاجمة النظم القومية في سبيل المصلحة الذاتية . وترجع نشأة هذا الحزب إلى أواخر القرن السابع عشر حين تحالف فريق من الأعيان ممن يكنون الكراهية للملكية مع جماعة البيورتان الساخطين على نظام الكنيسة الرسمي الذي رضيت

به الدولة . فكان الاتجاه الجمهورى هو الذى وفق بين الجماعتين .
وحاولت كل منهما اتخاذ ذلك ذريعة لبسط سيادتها وتأيد
سلطانها على البلاد ، فكان هذا الحزب أقلية ترى هدفها فى
حكومة الأوليىجارية وترى فى نظام جمهورية البندقية البائد
مثلاً لها يحتذى . وعلى النقيض من ذلك يؤكد الكاتب أن حزب
التورى هو الحزب القومى الحقيقى الوحيد فى البلاد كلها ، وما ذلك
إلا بسبب طابعه الديموقراطى ، إذ يقف إلى جانب النظم التى
قامت لتحقيق الصالح العام وضمان المساواة فى الحقوق المدنية ،
وهى التى بدونها لا يتسنى مطلقاً إيجاد حكومة حرة مهما كان
اسمها . فإذا ما أتم المؤلف هذا العرض التاريخى الذى يوضح
الخلاف الأساسى بين الحزبين ، صرح أن البلاد فى أشد الحاجة
إلى زعيم جديد يتولى رئاسة حزب التورى (أو المحافظين) ،
ويكون له ذلك القدر الكافى من الشجاعة الذى يجعله يتولى
الدفاع عن التقاليد والنظم الماضية إذا كانت مما يقدر لها البقاء ،
وإزالة غيرها مما لا يتفق وروح العصر وسنة التطور . وعلى
هذا الزعيم أن يتولى تعليم الحزب والسير به فى اتجاه جديد يرمى
إلى حماية مصالح الشعب لأن قانون الإصلاح قد ركز السلطة
كلها فى أيدي نفر ضئيل هو فى الحقيقة عدو للشعب ، وينبغى
أن يكون قوام سياسة المحافظين الجديدة العطف على أغلبية الشعب
واجتذاب الطبقة العامة ، بعد توضيح مبادئ الحزب ، وإثبات

أنها وحدها هي التي تتفق وصالح الأمة كلها .
 تلك هي المبادئ التي أبرزها دزرائيلي في مؤلفه ، وتلك هي
 الحجج التي أدلى بها . ولقد كان حظ الكتاب من النجاح والرواج
 والشهرة عظيماً حتى أن دوق ولنجتون نفسه ، وهو صاحب
 المكانة العليا في نفس الشعب الإنجليزي ، قال : إن عليهم أن
 يجدوا لهذا الشاب مقعداً في البرلمان . أما سير روبرت بيل فقد
 كتب إلى المؤلف بروح من التشجيع والمحبة والعطف .
 ذكرنا أن ميول دزرائيلي كانت في حقيقتها تتجه إلى ناحية
 المحافظين . وكان له في صفوفهم أصدقاء كالدوق بكنجهام وابنه
 لورد شانندوس ، ثم تقابل مع لورد لندهرست الذي أعجب به
 وبذكاؤه ومنحه صداقته وأسدى له النصائح أكثر من مرة ، بل
 إنه جمع بينه يوماً في حفل عشاء مع غلادستون ، وبفضل
 لندهرست استطاع دزرائيلي أن ينفذ إلى العالم السياسي ويتصل
 بأسراره ويتعرف إلى الشخصيات البارزة فيه . ونعلم أن دزرائيلي
 كان قد اتصل بالمجتمع المذهب في لندن وكسب لنفسه أصدقاء
 وصديقات من أرباب المراكز والنفوذ ، ومن عرفهم الكاتب
 Pulwer وزاره مراراً حيث تعرف في بيته إلى مسز ويندهام
 وقابلها عدة مرات . ولما مات الملك ولیم الرابع واعتلت العرش
 الملكة فكتوريا الشابة أصبح من المتعين إجراء انتخابات جديدة
 وهنا توالت عروض على دزرائيلي بدوائر مختلفة كي يرشح نفسه

في إحداها ، ومن أصحاب هذه العروض ويندهام لويس الذي أشار عليه أن يتقدم معه إلى دائرة ماديستون حيث حظ المحافظين في النجاح كبير . ولا شك إن لزوجته دخلا في هذا الاقتراح ، وكان دزرائيلي قد قابلها أكثر من مرة أبدت خلالها اهتماماً به ولمست مواهبه واستعداده حتى أنها كتبت تقول عنه « إنني أتنبأ أن مستر دزرائيلي سيصير في سنوات قلائل من أعظم رجال عصره » ، ولقد كانت نبوءة صادقة حققتها الأيام .

تقدم دزرائيلي إلى الدائرة وألقى خطاباً رائعاً جاء فيه مخاطباً النخبين « إنني أتقدم إليكم طالباً أصواتكم بصفتي نصير ذلك الدستور القديم الذي كان فخر آبائكم ، وسيظل نعمة لأبنائكم . أريد أن أرى التاج متمتعاً بامتيازاته ، وأن أرى كلا المجلسين يتمتعان بحقوقهما المتساوية » . ثم أجريت الانتخابات وظهرت النتيجة في ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٧ ، ففاز الشاب الجريء وأدرك أخيراً الهدف الذي كافح من أجله سنوات طوالاً .

أقام بعد ذلك ثلاثة أشهر في برادنام مع أسرته بقصد الاستجمام بعد العناء ، وزارته مسز ويندهام فكتبت إليها في أول سبتمبر سنة ١٨٣٧ يقول : « بعد أن ذهبت كان كل فرد وكل شيء يبدو مملاً وكئيهاً ، لأن الزيارة كانت قصيرة في الحقيقة » . وفي الخامس من نوفمبر اجتمع برلمان الملكة فكتوريا الأول ، وبدأ دزرائيلي حياته في مجلس العموم حيث يظل من أعضائه

ما يقرب من أربعين سنة بلا انقطاع . وهكذا اتخذ مكانه في
 القاعة التي أعجبت بوليم بت وبرك وكانج من قبل ، وجلس
 زميلا لروبرت بيل وأوكونل ورسيل وبالمريستون ، وفي السابع
 من ديسمبر وقف يلقي خطابه الأول بعد أن جلس أوكونل
 المرعب . بدأ النائب الجديد يتحدث إلى زملائه فأنصتوا هنيهة ،
 فلما بدأ يعرض إلى الزعيم الإيرلندي حدثت حركة في المجلس ،
 ولما هاجم قانون الإصلاح النيابي وأشار إلى أنه أفسد الأمور
 عن ذي قبل حيث أتاح الفرصة لأساليب الوعيد والإرهاب ،
 بدت في بعض أركان المجلس روح عدائية وبدأت المقاطعة ،
 واستمرت بحيث عجز عن حمل الأعضاء على الإنصات إليه ،
 وأحدث النواب الأيرلنديون والراديكاليون حركات وأصواتاً
 تبعث على الضحك ، فأخذوا يضربون الأرض بأقدامهم ،
 ويصرخون في وجهه ، ويعلقون على أقواله بعبارات ملؤها
 الهزء والسخرية ، ويقلدون أصوات بعض أنواع الحيوان .
 ومع ذلك حافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وقبل أن يجلس
 ختم خطابه بهذه العبارة : « إنني أجلس الآن وسيأتي اليوم الذي
 تستمعون فيه إلي » . وكأنما تنبأ الرجل . ولقد كتب إلى أخته
 ساره عن هذا الإخفاق الذي لازمه في محاولته الأولى حيث
 عجز عن حمل المجلس على إعطائه الفرصة ليدلي بكل ما لديه .
 ولكن هذا لم يكن ناشئاً عن عجز أو وهن من جانبه ، وإنما

سببه قوة الخصوم الجثمانية، ووصف موقفهم منه بأنه ينم عن
القسوة والبعد عن روح الحق والعدالة.

وقد حاول خصومه استغلال هذه الفرصة للنيل منه في
الصحف، ولكن التيمس لم تشأ أن تجرح شعوره، فوصفت
خطابه بالبلاغة. أما سير روبرت بيل فقد شجعه كثيراً، كما
كتب إليه لندهرست مبدئياً الأسف لموقف الراديكاليين ومعرباً
عن الثقة بنجاحه في المستقبل برغم أساليبهم وحملاتهم.

والواقع لم يكن من المنتظر أن يوفق دزرائيلي إلى الحد
الذي كان يتوقعه منذ أول مرة لأن المجلس لم يألف مظهره غير
الإنجليزي، وملابسه الدالة على عناية التأنيق، وأسلوبه المنمق،
وما اتخذه من موقف التكلف. لقد تلقى درساً قوياً في كيف
يخاطب مجلس العموم البريطاني حتى يستطيع أن يحمل الأعضاء
على الإنصات إليه.

رأينا ذلك الاهتمام الذي أظهرته مسز ويندهام بدزرائيلي،
وكيف جاهدت في سبيل نجاحه في الانتخابات حتى كانت اللوحات
الانتخابية تضم اسمها إلى جانب اسم المرشح، وحتى قيل في
الأوساط إنه موضع حمايتها البرلمانية. ولا شك أن هذا الحادث
زاد من توثيق الرابطة بين هذين الشخصين وكانت له نتائج هامة
بالنسبة إلى حياة دزرائيلي. واسم السيدة الحقيقي ماري آن إيفانس،
وولدت في عام ١٧٩٢ فهي تكبر صديقها باثني عشرة سنة. وكان

أبوها چون إيفانس ضابطا في البحرية البريطانية ، وحدث أن مات زوجها وصارت أرملة وهنا ابتدأت الصلة بينها وبين دزرائيلي تتخذ وصفاً آخر ، وبدأ الأخير يفكر جدياً في الزواج منها ولكنها لم تكن لتعطيهِ رأياً قاطعاً ، فهي ليست صغيرة السن إلى الحد الذي يستهويها أول عرض بل لا بد لها من وقت تفكر فيه وتدرس الأمر على وجوهه المختلفة ، كما أنها لا تريد أن تتسرع إذ ترى ضرورة احترام التقاليد فتسمح بانقضاء وقت كاف على موت زوجها الأول . ومن الجائز أنها كغيرها من بنات جنسها لجأت إلى سلاح الصد وعدم الاستجابة السريعة للرجاء لما لذلك من أثر قوى . غير أن دزرائيلي كان يزداد ميلاً إليها ويزداد سروراً بلقائها والجلوس إلى جانبها فهو يكتب إليها في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٣٨ يقول « الشمس ساطعة وتبدو برادنام في حلة من الجمال والخضرة والنضرة .. ولكنك لست هنا فأتوسل إليك بالحضور سريعاً ، وفي التاسع من أكتوبر يخبرها أن رأيه قد استقر على مغادرة ذلك المكان في الغد حتى يحظى بلذة قضاء يوم أو اثنين في صحبتها الحلوة لأنه لم يغادر البيت منذ أن بعدت عنه . وزاد به الشوق إليها فكتب يقول إنه كتب اسمها بحروف كبيرة وجعله أمام ناظره . غير أن بعدها عنه جعله يفكر بألم في التعاسة التي تحيط به ولذا فهو لا يستطيع « أن يوفق بين الحب والبعيد » وذلك لأن آرمه عن الحب هي التمتع الدائم بالاجتماع بذلك

المخلوق الحلو الذى وهبه نفسه . وهكذا جعل الحب من دزرائيلي
 شخصاً يتكلم بلغة الشعراء . وهو يعتقد أن عليه أن يطلعها على
 كل شيء ، ولذا فهو يحدثها عن العاصفة التى هبت على برادنام .
 غير أن ألسة السوء لم تشأ أن تظل عاطلة عن أداء مهمتها فى
 التفرقة وإلقاء ظلال الشك ، فأخذت تسخر بذلك الذى يسعى إلى
 امرأة تكبره ببضع سنوات ، وتعزو ذلك الغرام المفاجيء إلى
 سوء حالة العاشق المالية وأمله فى التخلص منها بثروة السيدة التى
 تملك بيتاً جميلاً فى أحد أحياء لندن الراقية ، وتتمتع بدخل سنوى
 لا يقل عن أربعة آلاف من الجنيهات . ويبدو أن مارى آن
 صدقت الدعوى أو ارتابت فى نوايا حبيبتها الحقيقية فلم تبد له
 العطف الذى اعتاده منها حتى اضطر أن يكتب إليها يوضح
 مركزه ، وينفى عن نفسه تهمة الجرى وراء مالها ، ويعتب على هذا
 الظن ، ويؤكد لها أن زواجهما لن يفيد فى المسائل الدنيوية
 المادية لأن المجتمع يجعل كل ما يشاء فى متناول يده . وختم خطابه
 بوداعها ، ولكنه لا يتظاهر بأن يتمنى لها السعادة لأنها ستقضى
 سنوات قلائل فى المرح ، وبعد ذلك تحل الساعة التى تتألم فيها
 وتذكره « بالندم والإعجاب واليأس ، وبذا تستعيد إلى ذاكرتها
 ذلك القلب الواله الذى طرحته جانباً وتلك العبقرية التى غدرت
 بها ، ، فكان الرد أن استخلفته أن يعود إليها فهى تكاد تجن وهى
 لم تفكر مطلقاً فى المسائل المالية . وهكذا سوى الخلاف الأول

والأخير بينهما ، وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٩ أصبحت ماري
آن هي مسز دزرائيلي . وقد خلفت لنا الزوجة بياناً موجزاً
واضحاً عن أوجه الخلاف بين شخصية وأخلاق كل منهما :

هاديء جداً	فؤارة وثائرة جداً
طباعه تمتاز بالرزانة إن لم تكن	مرحة وتبدو عليها السعادة أثناء
بطابع الحزن	الحديث
لا يستثار أبداً	يشيرها أى شيء
قليل البشاشة	عظيمة البشاشة والمرح
عنيف الحب بارد في الصداقة	باردة في الحب عنيفة في الصداقة
صبور جداً	عديمة الصبر
مجد جداً	في غاية الكسل
كريم جداً	لا تظهر الكرم إلا لمن تحب
غالباً ما يقول ما يعتقد	لا تقول مطلقاً إلا ما تعتقد
من المستحيل أن تعرف من يحب أو	طبعها مختلف وتظهر عواطفها لمن
من يكره لأنه لا يبدي عواطفه	تتحب
لا يداخله الغرور	بها غرور كثير
مزهو بنفسه	لا تزهو بنفسها
لا يحب نفسه	على جانب كبير من حب الذات
قل من شيء يدخل التسلية إلى نفسه	يسليها ويسرها كل شيء
عبقري	غنية
يمكن الاعتماد عليه إلى حد ما	لا يعتمد عليها أبداً
خصص حياته للسياسة والطموح	لا أطماع لها وتكره السياسة

وبرغم هذا التناقض عاش الزوجان مثلاً للسعادة والهناء ،
لأنها تؤمن به وتشق بمواهبه وتهيء له في بيته الهدوء الذي ينشده
ولا تغضبه ولا تشيره وتكرس حياتها لأجله . وهكذا عاشت
إلى جانبه ولازمته خلال حياته العصرية عهداً طويلاً .

الفصل الخامس

سقوط حكومة المهوج

ظهرت في إنجلترا خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر حركة ذات مظهر سياسي عرفت باسم « عهد الشعب » . وهي وليدة الفلسفة الراديكالية الإنجليزية التي كان دزرائيلي يعطف عليها عندما بدأ يشتغل بالسياسة ، وكانت تستمد معظم قوتها من الطبقة العاملة ، وكان الطابع الذي يميزها ديموقراطيا ، ولذا ساهمت بنصيب وافر في المطالبة بالإصلاح السياسي الذي انتهى بصدر قانون سنة ١٨٣٢ . ولكن مظهرها أخذ في التحول وتأثرت جماعة من أنصارها بفلسفة بكتام التي تعد إلى حد فلسفة الطبقة الوسطى ، ولذا لم يشعر دزرائيلي بالميل إليهم . غير أنه وجد في مجلس العموم نفراً قليل العدد يمثل الروح القديمة التي لا تتعلق بأهداف الآراء النظرية الصرفة ، بل تقوم على أساس من العطف الصادق على الشعب وتعمل عن إخلاص لما فيه خيره ورفاهيته . فكان من الطبيعي أن تنشأ علاقات من التفاهم والانسجام بين هذا النفر من الراديكاليين ودزرائيلي .

خب قانون الإصلاح النيابي ظنون العمال والآمال العريضة

التي علقوها عليه ، إذ وجدوا أنهم اشترکوا في معركة خرجوا منها خاسرين ، لأن النتيجة كانت اشتراك الطبقة الوسطى في الحكم مع الأرستقراطية الزراعية ، وبهذا صار هناك سيدان بدلاً من سيد واحد ، والأخير أشد قسوة لأنه بنى مجده وجمع ثروته على حساب بؤس الغير وشقاءهم . وإذا كانت الطبقة الدنيا من المجتمع الإنجليزى قد توقعت أن يسفر الإصلاح السياسى عن عالم جديد يحقق لها الخير والرفاهية في الميادين الإقتصادية والاجتماعية ، أو يعمل على إزالة المساوىء التي تشكو منها ، فقد برهنت السنوات التالية خلاف ذلك لأن برلمان الهويج الجديد لم يعمل شيئاً جديراً بالذكر في هذا الصدد ، ذلك لأن المصالح الذاتية أعمت رجال الصناعة الحديثة عن رؤية ما حولهم من آلام وشقاء ، ولأن حزب الهويج القائم بأمر البلاد كان متأثراً بالسياسة الإقتصادية التي تنفر من تدخل الدولة في العلاقات بين الأفراد وترى أن مسائل الأجور وما إليها إنما تحددها قوانين اقتصادية . ولهذا لم يتميز برلمان الإصلاح بأية إصلاحات اجتماعية أساسية سوى قانون المصانع الصادر في سنة ١٨٣٣ بشأن تشغيل الأطفال ، وقانون الفقراء لعام ١٨٣٤ والذي تعرض لحملات عنيفة كان دزرائيل يعطف عليها ويؤيدها .

غير أنه منذ سنة ١٨٣٧ بدأت فترة امتازت بانحطاط المحصول الزراعى وهبوط أصاب تجارة البلاد ، فعاد الأمر الأول بالبؤس

على فقراء الزراع، كما سبب الآخر شقاء أعظم بالنسبة إلى طبقة العمال الصناعيين. وهنا بدأت الدعوة من جديد إلى الإصلاح النيابي لعل فيه خلاص البلاد من وطأة تلك الأزمة. والواقع أن المسألة لم تكن سياسية بقدر ما كانت اقتصادية واجتماعية. قدمت طلبات ست تضمنتها وثيقة أطلق عليها اسم «عهد الشعب» وهي: (١) منح الانتخاب العام للذكور. (٢) نظام التصويت السري. (٣) البرلمانات السنوية. (٤) دفع مكافآت للأعضاء (٥) إلغاء مبدأ توافر نصاب فيمن يرشح نفسه لمجلس العموم. (٦) تقسيم البلاد إلى دوائر انتخابية متساوية. وقد عقد اجتماع كبير في لندن يمثل أنصار هذه الحركة، وسار جماعة إلى ساحة البرلمان يحملون العهد الموقع عليه من مليون شخص. غير أن المجلس رفض النظر في هذا الإلتماس وعامله بروح الازدراء، ورفض اقتراحا تقدم بشأن تأليف لجنة للنظر في الموضوع. وكان دزرائيلي يعطف على الروح التي أملت هذا العهد وإن لم يوافق على الأسلوب والوسيلة، ولذا أعد خطابا رائعا ألقاه في المجلس نسب فيه الفساد كله إلى قانون إصلاح سنة ١٨٣٢ الذي ركز السلطة — في رأيه — في أيدي رجال الطبقة الوسطى، وهي طبقة لا تشعر أن عليها أية واجبات اجتماعية إزاء بقية الشعب. ومعنى هذا أن هذه الطبقة منحت السلطان السياسي دون مسؤولياته الاجتماعية. وحمل النائب على ما أبداه الهويج من

إزدراء للمطالب التي تضمنها العهد أو الروح التي أملت ذلك ،
وعلى الأمر بأن هذه المطالب لا تتفق مع محاولة رجال ذلك
الحزب الاحتفاظ بالنفوذ الذي استولوا عليه واحتكروه، ثم قال
إن من الخطأ الظن أن البلاد ستحتمل هذا الإحتكار للقوة
السياسية من جانب الطبقة الوسطى لأن هذا يخالف طباع الشعب
الإنجليزي وتقاليده . وأخيراً نبه المجلس أو حذر الحكومة إلى
أن الحركة القائمة ليست عملاً سياسياً أو ذات طابع مؤقت ،
ولكنها في الحقيقة ثورة اجتماعية لها أهميتها ويجب معالجتها على
ضوء هذه الحقيقة . ولا شك أن موقف دزرائيلي هذا إنما يتفق
وأهدافه التي تنحصر في العمل على تحسين أحوال الطبقات الفقيرة
كما أوضح ذلك في خطبه وبياناته أثناء المعارك الانتخابية التي
خاض غمارها . غير أن المجلس — كما قلنا — رفض الإلتماس ثم
الاقترح بأغلبية كبيرة من الهويج والمحافظين وكذلك فعل
دزرائيلي لأنه لم يحاول بعد أن يخرج على الحزب الذي ينتمي إليه .
ولكن الخطاب الذي ألقاه يلقي ضوءاً على نظرة الرجل إلى مبدأ
الحكم الذي يجب أن يسود وإلى واجب الأحزاب القائمة بالحكم
إزاء مختلف بقية طبقات الشعب . ولا شك أنه رأى بشاق فكره
أن حزبه كذلك عاجز عن إدراك معنى الروح الجديدة الآخذة في
الظهور . ولا ريب أنه لم يكن يؤمن أن في استطاعة زعيمه سير
روبرت بيل أن يقوم بمهمة تربية الحزب وتعديل عقليته وآراء

رجالها حتى يتشبع بالروح الديموقراطية الجديدة . وكانت حركة «عهد الشعب» هذه مصدر ارتباك لوزارة لورد ملبورن ولكن لم يعرف كيف يستغلها المحافظون ، كما أنها اقترنت ببعض أعمال الشغب والاضطراب ، وواجهتها الحكومة بالشدة ووسائل القمع ، وزجت ببعض زعمائها في السجون وفرقت الاجتماعات التي نظمها أتباعها . ولهذا أخذت الحركة تضعف تدريجياً وبخاصة بعد سنة ١٨٤٣ إذ تحسنت الأحوال الاقتصادية نوعاً وخف الضيق الآخذ بخناق العمال إلى حد ما .

لقد كانت الغاية التي ترمى إليها الحركة كلها رفع مستوى الطبقات الدنيا من المجتمع ، أما وقد أخفقت الوسيلة تحول الرأي العام شطر ناحية أخرى للإفصاح عن آلامه واستيائه ، وأخذت الصيحة تعلو مطالبة بإلغاء قوانين الغلال وتألفت عصبة معادية لهذه القوانين عرفت باسم Anti-Corn League ومن زعمائها كوبدن وبريت .

على أثر انتهاء حروب نابليون صدر قانون الغلال سنة ١٨١٥ الذي حرم استيراد القمح الأجنبي ما دام سعر القمح الإنجليزي دون الثمانين شلنًا للربع . وهذا الإجراء قصد به حماية الزراعة الإنجليزية ، ولكن الواقع أن فائدته عادت على كبار الملاك الزراعيين إذ كانت الملكيات الكبيرة هي السائدة إذ ذاك وكانت من نتائج الثورة الزراعية التي شاهدها تلك البلاد منذ

القرن الثامن عشر . وقد أحدثت هذه السياسة التعسفية ضيقا كبيرا بالنسبة إلى العمال لأنها رفعت ثمن الخبز في الداخل وأصبح الكل ينظر إليها على أساس إنها إحدى الدعائم التي يرتكز عليها نفوذ الطبقة الأرستقراطية الزراعية . غير أن القانون المشار إليه أدى إلى زيادة إنتاج البلاد من القمح ولذا لم يصل ثمنه إلى الحد المقرر . ولكن في سنة ١٨٣٧ ساء المحصول وقل الإنتاج فارتفعت الأسعار كثيرا . وهنا تألفت في مانشستر جمعية معادية لهذه القوانين (١٨٣٨) ، وما لبثت أن انتشرت انتشارا واسعا وزاد عدد أنصارها بفضل شخصية كوبدن والدعاية الواسعة التي قام بها في طول البلاد وعرضها كلها زاد المحصول سوءا وارتفعت الأسعار وعم الضيق تبعا لذلك سنة بعد أخرى . وكان من المنذور أن تعالج الوزارة الأمر وأن تتجه نحو إلغاء هذه القوانين والسير في ناحية حرية التجارة ، ولكن لورد ملبورن كان من أشد أنصار سياسة الحماية الجمركية . ويلاحظ أن حركة كوبدن كانت أعمق مغزى من كونها انتصار لمبادئ اقتصادية معينة . لقد أصبحت قوانين الغلال رمز التفوق السياسى للأرستقراطية من ذوى الأملاك . وقد تزعزع هذا التفوق بصدور قانون الإصلاح النيابى في سنة ١٨٣٣ ، غير أنه برغم هذا ظل النفوذ الفعلى لهذه الطبقة ، ولهذا وجدت الطبقة الوسطى أنها لم تحصل على النفوذ السياسى الذى يتفق مع القوة الاقتصادية الكبيرة التى فى أيديها ، ومن

هنا وجد رجالها نصيرا لهم في شخص كوبدن فأيدوا حركته
تأييداً كبيراً حتى أن العمال شكوا فيها أولاً واعتقدوا أنها ترمي
إلى خدمة رجال الصناعة حتى يستطيعوا خفض الأجور أو عدم
تحسينها إذا ما فتحت أبواب البلاد للقمح الأجنبي الأرخص ثمناً.
ومما يذكر بالفضل للعصبة الجديدة أنها قامت بمهمة سامية هي
تعليم الشعب الإنجليزي في المدن والقرى الكثير من المبادئ
الاقتصادية والآراء السياسية في وقت لم يكن الأدب السياسي
رخيصاً ميسوراً مما يجعله في متناول أكبر عدد من الناس. لقد
كانت الجمعية تنشر على الشعب البيانات والمعلومات حتى بلغ
عدد النشرات التي وزعتها تسعة ملايين. وفضلاً عن هذا فقد
انحاز إلى صفها العمال وأرباب الصناعة وبذا وفقت بين العمل
ورأس المال في سبيل تحقيق غرض واحد حتى أصبح الجميع
يطالبون بالإلغاء السريع الكامل لهذه القوانين البغيضة.
أما دزرائيلي فقد ظل دائماً معادياً لهذه الحركة وخصماً لها.
ففي سنة ١٨٣٢ — قبل تأليف العصبة بست سنوات — قال :
« خفضوا الأعباء الثقيلة الواقعة على صدر الفلاح ثم بعد ذلك
خففوا الحماية التي تمنحونها له بنفس النسبة. هذه هي الوسيلة
التي يحصلون بها على خبز رخيص ... بدون أن تهدموا المصلحة
التي هي أساس كل سعادة اجتماعية سليمة » وفي وقت آخر قال :
« لمصلحة من تريدون إلغاء قوانين الغلال ؟ » وأجاب عن هذا

السؤال بأن الإلغاء يخدم مصالح الرأسماليين الصناعيين وخدمهم ،
وهؤلاء كونوا حزباً يسعى إلى تحقيق هذا الغرض بحجة السعي
إلى خفض الإيجار ، ثم قال : إن الغاية الحقيقية لهؤلاء هي هدم
ذلك النظام السياسي الذي يقوم على تفوق أصحاب المصالح
الزراعية أي الملاك . ولما قال أنصار الإلغاء إن هذا العمل كفيلاً
بخلق أسواق جديدة للمصنوعات الإنجليزية وبذا تصبح إنجلترا
المصنع الذي يمد العالم بحاجته ، عارض دزرائيلي واعتبر ذلك
من الفروض التي تستمد الوحي من النظريات الاقتصادية دون
إقامة وزن للاعتبارات العملية ، وحذر البلاد من اتباع سياسة
تقوم على دعم الصناعة وحدها وإهمال الزراعة فتصبح البلاد
عالة على غيرها . فكأن دزرائيلي عدو لحرية التجارة حرصاً على
صالح الزراعة الإنجليزية ، وفضلاً عن هذا فهو من المعجبين
بالأرستقراطية الزراعية القديمة والتي يعدها الأساس الصالح
لتنظيم القائمة ، ولذا نظر إلى الإلغاء كوسيلة من جانب رجال
الطبقة الوسطى لهدم هذه الأرستقراطية دون أن يصحب ذلك
مثلاً سعي إلى رفع شأن الطبقات الفقيرة .

ظلت وزارة الهويج قائمة بالحكم في وجه مشكلات معقدة
واضطرابات اجتماعية واقتصادية لم تستطع أن تجد لها العلاج
الحاسم ، وكان أعظم مصادر ضعفها عجزها عن تدبير موازنة
الميزانية سنة بعد أخرى . ومع ذلك أبت أن تخلي مكانها

لخصومها ، تتلقى الهزائم واللطمات في داخل المجلس وخارجه .
 أما خصومها أو بعبارة أخرى بيل فكان موقفهم ممتازا بالشذوذ
 والجمود ، حتى سخط الكثيرون من المحافظين على زعمائهم ،
 واتهم البعض دوق ولنجتون بأنه هو الذى يعمل على إبقاء
 الهويج فى الحكم لأنه لا يريد أن ينزل إلى الميدان السياسى أو
 يعود إلى الكفاح ، وهنا ظهر مقال بإمضاء Atticus (وهو اسم
 مستعار اختاره دزرائيلى) فى صحيفة التيمس (١١ مارس ١٨٤١)
 هوجمت فيه خطة زعماء المحافظين لأن السياسة البرلمانية « التى
 تسمح فى الوقت نفسه بقيام الهويج بمقاييد أمور الحكومة
 مستندين إلى أغلبية من المحافظين » هى سياسة بعيدة عن روح
 الحكمة وبعد النظر .

حاول الهويج معالجة اضطراب الميزانية الناشئة عن سوء
 حالة المحاصيل الزراعية والتجارة بالسير نوعا فى اتجاه حرية
 التجارة ، فقر رأيهم على خفض الرسوم المفروضة على السكر
 والخشب الواردين من الخارج وإجراء تعديل بسيط فى الرسوم
 التى على القمح ، ومن هنا كان خطأهم لأن البلاد كانت قد
 تشبعت بفكرة الإلغاء الشامل لقوانين الغلال ، وكان المفروض
 أن الهويج وهم أنصار المبادئ الحرة هم الذين يقومون بهذه
 المهمة خاصة وأن الذين انتخبوهم ليسوا السادة المزارعين
 كما هو الحال مع المحافظين . غير أنهم كانوا يخشون القيام بهذا

العمل حتى لا ينشق الحزب على بعضه لأن بعض رجالهم كانوا على ارتباط وثيق بذوى المصالح الزراعية ومتأثرين بأهدافهم . ومن هؤلاء بالمرستون نفسه إذ كان شديد المعارضة لأى سياسة ترمى إلى تطبيق مبدأ حرية التجارة على القمح ، وعلى هذا أصبح لابد من أشخاص آخرين للانتقال بالبلاد إلى عهد جديد ، وانتقلت الزعامة إلى أيدي الراديكاليين والمحافظين الأحرار بزعامة بيل .

قدمت الوزارة ميزانيتها إلى المجلس ، وبعد مناقشات حامية دارت ثمان ليال هزمت بأغلبية ست وثلاثين صوتاً . وقد خطب دزرائيلي خطبة كانت ذات تأثير فعال أكسبتهثناء من بيل كما قال لاخته في خطاب إليها (١٥ مايو) . أرادت الوزارة بعد هذه الهزيمة أن تتراجع في مسألة الرسوم على السكر ، وهنا قدم بيل اقتراحاً بعدم الثقة ونجح فيه بأغلبية صوت واحد . وبدلاً من أن تقدم الوزارة استقالتها حلت المجلس وأجرت انتخابات جديدة أسفرت عن هزيمة الهويج . ولكن الوزارة واجهت المجلس برغم ذلك ولم ترفع استقالتها إلا بعد أن عدل المجلس خطاب العرش بأغلبية تسعين صوتاً . وقد تكلم دزرائيلي أثناء مناقشة التعديل وحمل بشدة على الحكومة التي ظلت متمسكة بالحكم برغم سحب الثقة منها في البرلمان السابق ، وبرغم ما أعربت عنه البلاد في الانتخابات من عدم الرضا بها . وهذا

الذى نادى به دزرائيلي مبدءاً جديداً فى النظام الدستورى حتى أن
جراهام وستانلى من المحافظين لم يكونا ممن يجذونه . ولكن
دزرائيلي فى المستقبل هو الذى سيثبت دعائم المبدء الدستورى
الذى يقضى باستقالة الوزارة إذا كان المجلس الجديد مخالفاً
لها ولسياستها .

الفصل السادس

الحياة العظمى

أو

دزرائيلي وروبرت بيل

لما أجريت الانتخابات تقدم دزرائيلي عن دائرة شروزبرى ،
وهناك صرح أنه يؤمن بأن مصالح الزارع والصانع والتاجر
متماثلة ، وأنه سيقاوم أية محاولة لتضحية أحدهم لحساب مصالح
غيره الوهمية . وأعلن كذلك أن أهدافه هي المحافظة على الدستور
ومصالح الطبقات ، وحریات الشعب . ولما استقالت وزارة
ملبورن استدعت الملكة فكتوريا سير روبرت بيل وعهدت إليه
القيام بأعباء الحكم . واعتقد الكثيرون أنه لابد محتفظ بمنصب
لدزرائيلي . ولكن مرت الأيام دون أن يبعث في طلبه مما حمل
الأخير على إرسال كتاب يذكّر فيه جهوده الطويلة والأعباء
التي تحملها والأموال التي أنفقها في سبيل نصرة الحزب وخدمة
السياسة التي يدعو إليها الزعيم ، وختم كتابه بـرجاء أن يذكّره
بيل وبذا ينقذه من إذلال قد يتعرض له . وفي الوقت نفسه

كتبت زوجته إلى رئيس الوزراء في هذا المعنى وقالت : « إن حياة زوجي السياسية ستستحق إلى الأبد إذا لم ينل تقديركم . »
 رد بيل على دزرائيلي ينفي أنه كلف أحداً بمفاجئته ، ومحاولة الإشارة إلى قلة عدد المناصب التي عليه أن يملأها . ويبدو من ثنايا الرد أنه يجاهد في تبرير موقفه . ومن المؤكد أن رئيس الوزراء كان يقدر دزرائيلي ومواهبه ، وكثيراً ما امتدحه وأثنى عليه . ويبدو أنه أرغم على هذا المسلك بسبب ضغط كبار أعوانه ، فستانلي مثلاً صرح أنه « لن يظل في الوزارة إذا دخلها ذلك الوغد » ، كما أن كبار المحافظين من الأرستقراطية مثلاً كانوا يعدون دزرائيلي دخيلاً ومغامراً بدأ حياته بالاشتغال بكتابة القصص ، ومتزوجاً من سيدة ثرثرة يدل نظام بيتها وتأنيثه على فساد ذوقها . ومن الجائز أن بيل استاء من هذا الطلب من جانب تابعه في الوقت الذي احتفظ غلادستون بكرامته حتى أنه حين عرض عليه منصب تساءل في دهشة إن كانت سياسة الوزارة الديفية تسمح له بالدخول فيها .

هكذا أغفل بيل أحد أنصاره الممتازين بالنشاط والمقدرة والجرأة . وهو ما لم ينسه دزرائيلي في المستقبل . بل لا بد وأن يحاسب زعيمه على هذا الخطأ حساباً عسيراً إذا ما تجمعت أسباب أخرى تتصل بالمصلحة القومية واختلاف وجهات النظر في السياسة التي يجب اتباعها إزاء المسائل المختلفة . دخل دزرائيلي

المجلس ووجد وجوها كثيرة تشخص إليه ، بل اعتقد البعض أنه سينقلب على رئيس المحافظين . ولكنه حافظ على هدوئه ولم يغير موقفه لأنه لا يريد أن يستبق الحوادث أو يتعجل تطورها .

كان برلمان ١٨٤١ يضم جماعة من شباب النواب تربطهم صلة الدراسة والزمان في إيتون وكمبرج ، وكذلك رابطة وحدة الآراء في المسائل المتعلقة بالدولة والكنيسة . وقد عرفت هذه الجماعة باسم «انجلترا الفتاة» . وكان جورج سميث الروح التي تحرك هذه الفئة ، وكان ذا شخصية ساحرة ومواهب عقلية عظيمة . ومن الأعضاء كذلك لورد جون مانرز (الابن الثاني لدوق روتلاند) وهو دون زميله من حيث المواهب . ولكن المهمة لم تكن هينة ، فهناك عجز الميزانية وانحطاط شأن التجارة وشيوع الفاقة والبؤس . وقد حاول رئيس الوزراء معالجة الأمر في الميزانيات التي قدمها في سنوات (١٨٤٢ - ٤٥) ، فألغى معظم ما تبقى من الرسوم على المصنوعات المصدرة والواردات من المواد الأولية ، وعوض النقص الذي أصاب الميزانية بإعادة ضريبة الدخل . وقد خفضت هذه الميزانيات الرسوم المفروضة على القمح قليلا ولذا لم تواجه مقاومة جديدة من جانب حزب الحماية الجمركية لأن الرسوم التي ألغها يميل كانت في الواقع ذات صفة إيرادية ولا يقصد بها الحماية على الإطلاق . غير أن الصعاب

كانت تواجه بيل فهناك المشكلة الأيرلندية التي دارت بصددتها مناقشات طويلة ، كما أن أصحاب المصالح الزراعية بدأوا يلبسون في سياسة زعيم المحافظين اتجاهها خطيراً نحو سياسة حرية التجارة وبخاصة عند ما منح امتيازات للقمح الأمريكي ، ثم جاءت النكبات في أفغانستان وإن كانت من مخلفات سياسة الهويج ، وكذلك نجد الشعب الذي اعتاد سياسة بالمرستون العنيفة الصاخبة ساخطاً على سياسة لورد أبردين الخارجية . وخلال هذه المسائل كان دزرائيلي يصوت إلى جانب الحكومة إلا في مسألة القمح الأمريكي . ولكن عند القراءة الثالثة للمشروع الأيرلندي Irish Arms Bill إنحاز إلى جماعة انجلترا الفتاة بخطاب أعده بعناية فائقة وهاجم سياسة العداء نحو الكاثوليك التي جرى عليها الهويج ويحاول المحافظون انتهاجها كذلك . ثم حدثت ثورة في صربيا أدت إلى اضطراب العلاقات بين روسيا وتركيا ، ففتح بالمرستون باب المناقشة عن الموقف في الشرق ، ثم خطب دزرائيلي على أثر بيل وانتقد بعنف ما أبدته الحكومة من عجز في سياستها الخارجية ولخص سياسته الخارجية في وجوب المحافظة على الدردنيل ومنع اقتراب الروسيا منه . وهكذا نجد دزرائيلي يهاجم رئيسه هجوماً مباشراً وعنيفاً في الوقت نفسه . وبعد ثلاثة أشهر من ذلك الحادث كتب إلى سير جيمس جراهام يطلب وظيفة لأخيه (٢١ ديسمبر ١٨٤٣) ، فرفض جراهام بطبيعة

الحال « لأنه خطاب وقح » وخاصة بعد سلوكه ولغته في مجلس العموم . وقد ترتب على مسلك دزرائيلي أن أهمل بيل دعوته إلى اجتماع عام من المحافظين مما حمل النائب على أن يكتب إلى رئيسه محتجاً بأن سلوكه لم يكن ليبرر مثل هذا الإغفال ، فجاءه الرد يعزو عدم دعوته إلى موقفه من المسائل العامة التي تسير عليها الوزارة . زاد انحراف دزرائيلي عن الوزارة ورئيسها ، وزاد هجومه عنفاً ، واستخدم في ذلك كافة الأسلحة التي في جعبته . فقال مرة لناخبيه « لقد ناصرت حزب المحافظين طالما تمسكوا بمبادئهم ، فلما خرجوا على هذه المبادئ صوتت ضدهم ... كثيراً ما أعربت عن مشاعري بالأسف عند ما اختلفت مع الحزب ، ولكنني أفضل ألا أكون شيئاً عن أن تكون مهمني مجرد تسجيل قرارات الحكومة » . وهذه العبارة تلقى ضوءاً على الرجل ، فهو لا يريد أن يكون من نمر البرلمان أو أولئك الأعضاء الذين تنحصر مهمتهم في الموافقة والتأييد على طول الخط حتى ولو خالف ذلك ما يعتقدون في قرارة نفوسهم . الواقع أن الشخصية الكبيرة لتفكر من أن تقف هذا الموقف فتلغى نفسها وعقلها في سبيل مناصرة رأي الحزب الذي تنتمي إليه .

اشتد نشاط جماعة انجلترا الفتاة وكان هؤلاء الشباب من المشبعين بروح الرومانيتيزم الجديدة ولذا سخطوا على ذلك العصر الذي سادته مذهب المنفعة ، وأسفوا على تأثر الناس

بالناحية المادية وسعيهم وراء الثروة ومغالاتهم في تقدير الآلات
 دون أن يعنوا بالمثل العليا والمصالح السامية للإنسان .
 ومن حيث مبدأهم السياسي كانوا يؤمنون أن النظام
 الملكي ليس وسيلة للحكم ، وإنما هو مبدأ ثابت الأصول ، ولهذا
 فمن أوجب الأشياء العمل على أن يستعيد العرش كرامته ونفوذه
 وكانوا يريدون للكنيسة قدراً من الإستقلال أكبر مما تنعم به ،
 وينظرون بعين السخط إلى الطبقة الوسطى وتفوقها ، ويرون أنه
 لحفظ التوازن ينبغي إعادة طبقة النبلاء والأرستقراطية إلى
 مركزهم السابق في زعامة الشعب ، ولن يتأتى هذا إلا إذا أدرك
 الآخرون الواجب الملحق على عاتقهم . وفضلا عن هذا كانوا
 يشعرون بعطف صادق على الشعب ، يؤمنون بالطبقات الدنيا
 من المجتمع ، ويعتقدون أن في الإمكان رفع هذه الطبقات من
 البؤس الذي انحدروا إليه . وكانوا يظنون في بادئ الأمر
 أن في استطاعة روبرت بيل أن يحقق هذه الأهداف التي
 وضعوها نصب أعينهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا فيه سياسيا
 ذا طابع عملي لا يشبع خيالهم وآمالهم ، فضلا عن أنه يمثل الطبقة
 الوسطى التي يشعرون نحوها بالكراهية الشديدة ويخشون
 تفوق نفوذها وسلطانها . وما لبث أن نشأ التوافق بين أفراد
 هذه الجماعة ووزرائي بسبب اشتراكهم في اعتناق آراء واحدة من
 حيث الرغبة في إصلاح حزب التوري على أساس شعبي ، والمحافظة

على نفوذ الطبقات العليا القديمة، والعطف على الطبقة الدنيا،
وكرهية جماعة الهويج، والنفور من مبادئ الطبقة الوسطى.
وكان هؤلاء القوم يعجبون بعبقريّة دزرائيلي ومواهبه. كما أنه
من جانبه أدرك مزايا التحالف مع هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقة
الأرستقراطية التي يعجب بها ويعدها أقوى دعائم المجتمع
الإنجليزي. وقد أشبع غرورهم وشبابهم بأن أظهرهم في رواياته
فسميث هو بطل رواية Coningsby، كذلك الثاني هو لورد
هنري سيدني في نفس القصة. وقد ظهرت هذه القطعة من الأدب
السياسي في عام ١٨٤٤ وعنوانها «كوننجسبي أو الجيل الجديد»
فلقيت نجاحاً كبيراً ورواجاً عظيماً لأنها من جهة عدت إفصاحاً
عن برنامج جماعة إنجلترا الفتاة، ومن جهة أخرى إلى ما تضمنته
من إشارات إلى بعض الساسة الأحياء. والقصة سخرية لاذعة
لتفاهة الآراء السياسية السائدة، واحتقار الساسة من الهويج
والتوري. فالأولون يدعون أنفسهم أحراراً وهم يكرهون
الحرية، والمحافظون ليس لديهم ما يحافظون عليه. ثم تمجد
الرواية الفرد صاحب العبقريّة. ولكن ماذا يفعل الفرد إزاء
الرأي العام؟ إنه يفعل كل شيء لأن الله خلق الفرد على صورته،
أما الرأي العام فالذي يخلقه هم رجال الصحافة وأعضاء البرلمان
ومن على شاكلتهم! ثم ما هو هدف الشباب؟ إنه السعي إلى
إنشاء الحكومة التي يحبونها حباً صادقاً لا التي يكتفون بتأييدها.

وإنها لرسالة خالدة توجه إلى الشباب في كل عصر وفي كل بلد .
 لا شك أن الأمة عندما طلبت بيل ليتولى الحكومة إنما
 أعربت عن أملها في أن يتمكن من معالجة المشاكل . وحدث في
 ١٣ مارس سنة ١٨٤٥ أن ألقى ريتشارد كوبدن أعظم خطاب
 له ضد قوانين الغلال . أصغى رئيس الوزراء ثم التفت إلى سيدني
 هربرت أصغر أعضاء وزارته سنا وطلب إليه الرد . وقف هربرت
 يتكلم ولسوء الحظ وردت في خطابه العبارة التالية : « إن من الأشياء
 الكريهة إلى النفس أنه كلما حدث ضيق مؤقت يأتي الزراع
 يصرخون ويشكون إلى البرلمان » . وهنا كانت الفرصة التي يترقبها
 دزرائيلي فقال : « لا شك أن هناك فرقا بين سلوك السيد المحترم
 كزعيم للمعارضة وموقفه بصفته كرئيس لوزراء التاج . . . إني
 لأذكر تلك الخطابات العظيمة التي ألقاها دفاعاً عن سياسة الحماية »
 ثم هاجم صمت بيل الذي ينم عن الصلف ، وبروده الذي يدل على
 الكبرياء ثم قال : « ولكن السيد المحترم إذ وجد نفسه مضطراً
 أن يتدخل يرسل إلينا تابعه » . ثم ختم خطابه بهجوم عنيف على
 حكومة المحافظين وأسمائها « نفاقاً منظماً » . واشتد الهجوم على
 رئيس الوزراء وشبهه بأمير البحر التركي الذي بعث به السلطان
 على رأس أسطول لمقاتلة العدو ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك
 استسلم لخصمه ودافع عن نفسه بقوله : « إن السبب الوحيد الذي

حملني على قبول القيادة كان رغبتى فى أن أضع حدا للصراع
بخيانة سيدى .

وفى جلسة ١٥ مايو سنة ١٨٤٥ كانت القراءة الأخيرة
لمشروع إلغاء قوانين الغلال ، وحمى وطيس المناقشة بعد أن
انقسم المحافظون ولم يبق مع بيل سوى مائة منهم . وحدث أن
بدت اشارة إلى الخطاب الذى سبق أن أرسله دزرائيل فى عام
١٨٤١ عند تشكيل الوزارة ، وهنا وقف يقول : « لن أطلب
مطلقا أى منصب لأن هذا العمل غريب عن طبيعتى .. ولم أطلب
خدمة من الحكومة حتى فى المسائل العادية التى يضطر أى شخص
إلى طلبها ... وفيما يتعلق بشخصى لم أطلب منصبا سواء بالطريق
المباشر أو غير المباشر » . هكذا أسلم نفسه إلى سير روبرت
بيل الذى كان الخطاب فى حافظة أوراقه الموضوعة أمامه .
ولكن بيل التزم الصمت ولم يفعل شيئا كان فى استطاعته أن يضرب
به النائب المتمرد ضربة عنيفة . وفى نهاية الجلسة وافق المجلس
بأغلبية ٩٨ صوتاً على القانون بإلغاء قوانين الغلال على أن يسرى
مفعول ذلك ابتداء من عام ١٨٤٩ . وبهذا انتصر انتصارا حاسما
على دزرائيل وأنصار الحماية . ولكن تحالف هؤلاء مع الهويج
وهزموا الحكومة ونالوا ثأرهم إذ قدم بيل استقالته مباشرة .
هكذا حطم الرجل حزبه وأبعده عن الحكم سنوات طوالا فى

سبيل ايمانه بأنه يؤدى خدمة إلى البلاد ؛ وقد حققت الايام
رأيه وأثبتت أنه كان على حق .

لقد تولى بيل الحكم فى ظروف حرجة حاول كما قلنا التخفيف
من شدتها فى ميزانياته ولسكنه كان يتحول تدريجاً عن مبادئه ،
ويتجه شطر ناحية حرية التجارة نظراً لما رآه حوله من بؤس
الطبقات العاملة والعمال الزراعيين ، وبفضل الحجاج الاقتصادية التى
كان يدلى بها كوبدن . ولسكن الذى ساعد على تحوله هذا هو
أن العصبة التى أنشأها كوبدن كانت حجة قوية يستند إليها
أولئك السادة الذين لم يذسوا الدرس الذى تعلموه أثناء الاضطراب
الذى صحب حركة المطالبة بالإصلاح النيابى . رأى بيل كذلك
أن هذا القانون الذى سبق أن هاجمه باعتباره عمل ثورى ، لم
يسر بالبلاد كما يجب وأن مجلس العموم لا زال مجلس الملاك ،
وبدأ يخشى أنه إذا ظل يدافع عن قوانين الغلال حتى اللحظة
الآخيرة فقد ينتهى الأمر بصراع بين الحكومة والشعب يعصف
بالأولى . أو كما علق على ثورة فرنسا فى عام ١٨٤٨ بأن « هذا
يتأتى من محاولة حكم البلاد عن طريق تمثيل ضيق النطاق فى البرلمان
دون مراعاة رغبات الشعب ، وهذا ما كان الحزب يريد منى أن
أعمله بصدد مسألة قوانين الغلال وأبديت أن أحقق رغبتهم .
وفى سنة ١٨٤٥ كان قد تحول نهائياً عن تمسكه بسياسة الحماية ،
واعترى أن يصارح الشعب بذلك ويقنعه بوجهة نظره فى

الانتخابات القادمة حتى لا يقال إنه خدع الناخبين وخان وعوده السابقة. غير أن الظروف أجبرته على العمل السريع، ذلك أن محصول البطاطس في أيرلنده أصيب بعجز كبير وأصبحت البلاد مهددة بالمجاعة، وما كان في الاستطاعة مد يد العون من إنجلترا إذ كان بمحصول البلاد نفسها من القمح عجز بسبب رداءة الأحوال الجوية. هنا قامت عصبة أعداء قوانين الغلال بأعظم حملة في تاريخها، وصار كل فرد يطالب بالإلغاء «الشامل السريع»، وانحاز الهويج إلى هذه النظرية حينما كتب زعيمهم لورد جون رسل خطاب إذنبه المعروف معرباً عن رأى الشعب في الموضوع. أصبح لابد من التنفيذ العاجل إما على يد بيل وإما عن طريق الهويج. ولكن ستانلي عارض سياسة رئيس الوزراء الذي عجز عن حمل الوزارة على تأييده وقدم استقالته إلى الملكة في ديسمبر سنة ١٨٤٥. استدعى رسل لتأليف الوزارة. فعجز بسبب خلاف بين بعض أعوانه ممن أراد ضمهم إلى الوزارة. ولكن الواقع أن الهويج لم تكن لديهم الجرأة الكافية لتنفيذ هذه السياسة على الوجه الأكمل، وخشوا العجز عن نيل موافقة مجلس الأعيان ولم يريدوا الدخول في نزاع كما فعل لورد جراي في سنة ١٨٣٢. وبرغم أنهم كانوا يدعون أنهم يمثلو الشعب فإنهم لم يشاءوا القيام بحملة ضد هذا المجلس، ولهذا فضلوا أن يدعوا الأمر لبيل وهو من المحافظين. في هذه اللحظة الحاسمة تقدم بيل في شجاعة وانحاز

إليه دوق ولنجتون لأنه يراه أصلح رجل للحكم ، ولأنه يعتقد أن عليه واجباً هو خدمة الملكة والشعب .

أخذ بيل على عاتقه فوز المشروع ونجح الأمر في مجلس العموم كما أشرنا ، ثم مر القانون في مجلس اللوردات في ٢٦ يونيه . وفي هذه الليلة بالذات هزم بيل وثار دزرائيلي . لقد فضل الزعيم أن يتهمة أعوانه بخيانة الحزب عن أن يذكره التاريخ بالرجل الذي خان قضية البلاد في أخرج لحظاتها . لقد أحدث تعديلاً خطيراً في سياسة إنجلترا الاقتصادية ، وتضاملاً بشأن الحماية ، وحتى أنصارها أخذوا يفقدون ثقتهم فيها بعد أن شاهدوا تحسناً مستوياً المعيشة ، وتقدم التجارة ، وازدهار الصناعة ، وبعد أن لمسوا سنوات أن إلغاء قوانين الغلال لم يؤدي إلى نسكة الزراعة الإنجليزية كما كانوا يتوقعون . وستثبت الأيام أن أزمة الزراعة في تلك البلاد راجعة في أساسها إلى عوامل أخرى أبعد غوراً .

الفصل السابع

الزعيم

هكذا استقال بيل بعد أن تحطم حزب المحافظين مما أتاح الفرصة لخصومهم الأحرار الذين ظلوا في الحكم زهاء ثلاثين عاما. وهي فترة بدأت بانقلاب خطير الشأن في سياسة البلاد الاقتصادية. وتميزت بتطورات وأحداث، وشاهدت قيام عصر جديد من الإصلاح.

تولت وزارة لورد چون رسل، ولكنها كانت ضعيفة لعدم استنادها إلى أغلبية في مجلس العموم. ولم يساعدها على البقاء سوى انقسام المحافظين إلى فريقين يشعر كل منهما بالمرارة والكرهية نحو الآخر. فأنصار بيل لم ينسوا كيف عومل زعيمهم، وبمرور الزمن انحاز بعضهم إلى حزب الأحرار، ومن هؤلاء لورد أبردين وغلادستون. وكانت جماعة أنصار الحماية فقيرة في الرجال الأكفاء الموهوبين، وليس فيهم من يصلح لقيادتهم سوى دزرائيلي نفسه. وقد تولى رئاسة الجماعة في مجلس العموم اللورد جورج بنتنك الذي اتخذ دزرائيلي نائبا ومعاوناً له، لأنه كان يقدر كفايته ويشق في ولائه وإخلاصه.

ويؤمن بشجاعته . أما ستانلي زعيم الجماعة في مجلس اللوردات فلم يكن يميل إلى دزرائيلي . ولعلنا نذكر ما سبق أن قاله بشأنه . رضى دزرائيلي بالموقف لأنه يجيد الانتظار حتى يحين الوقت المناسب ، وأخذ يمثل دور المعارضة بما أكسبه الاحترام والتقدير من الخصوم والأصدقاء . وحدث أن انتخب روتشيلد عن لندن ولكنه لم يستطع أن يتخذ مقعده في مجلس العموم إذ لا بد له أن يقسم اليمين حسب الديانة المسيحية ، وهنا اقترح رسل إلغاء الصيغة لأنه يؤمن أن لكل إنجليزى الحق فى أن ينعم بكافة مزايا الدستور . وقف دزرائيلي يؤيد المشروع ، وضرب على نغمة الارتباط الوثيق بين المسيحية واليهودية ، وما قاله « من هؤلاء الذين يعتقدون الديانة اليهودية ؟ إنهم نفس الأشخاص الذين يعترفون بالله كما يفعل المسيحيون فى هذه الدولة . إنهم هم الذين صاغوا دينكم ! » . فهو يبنى تأييده المشروع على فكرة الحقيقة الدينية ، لا على أساس مبدأ الحرية الدينية . وقد دهش المجلس لذلك ، ولا شك أن الرجل أبدى شجاعة نادرة باتخاذ مثل هذا الموقف وهو يعرف ميول الحزب الذى يتزعمه ، وقد رُفض المشروع وصوت أنصار الحماية ضده ، باستثناء زعيمهم ونائبه . ولما عرضت الوزارة ميزانية الدولة هاجم دزرائيلي سياسة الحكومة التجارية . غير أن أهم خطاب ألقاه كان بصدد ما اقترحه هيوم من الإصلاح البرلمانى . وفى

هذا الخطاب هاجم المشروع المقترح وقانون سنة ١٨٣٢ على أساس أنهما يجعلان حيازة الأملاك المؤهل الوحيد لممارسة الحقوق السياسية، دون أى اهتمام باعتبارات أخرى تجعل الانتخاب أقرب إلى تمثيل العناصر المختلفة كالتوائف المتعلمة والطبقات العاملة فى الصناعة. وهاجم كذلك فكرة تقسيم البلاد إلى دوائر متساوية إذ معنى هذا أن نزع السيد من جهته الدائمة ونلقى به إلى مدينة مثل برمنجهام. وأعلن أن هذه المطالب إن هى إلا حركة مدبرة من جانب الطبقة الوسطى بغية زيادة نفوذها على حساب الأرستقراطية والطبقة العاملة. ثم استعرض تاريخ التشريعات السابقة فبين كيف أن الطبقة الوسطى حررت العبيد ولسكنها لم تقدم مشروع الساعات العشر للعمال، وكيف أن القوانين التى صدرت وجهت همها إلى رأس المال وأهملت العمل ومصالحه، وكيف أنها جميعاً لا يبدو فيها أى أثر للعطف على العمال. ويظهر من أقواله أنه جعل غايته تقييد النفوذ الواسع الذى حازته الطبقة الوسطى فى ظل قانون ١٨٣٢، وذلك بتقوية طبقة الملاك الزراعيين، وتخوير القوانين بحيث تسمح بتمثيل العنصر العمالى فى البلاد بدرجة تتفق وتغير الأحوال والظروف.

قضت الوزارة عشرة أشهر دون أن تعمل شيئاً يستحق الذكر كما وعدت فى برنامجها، ولما ووجهت بهذه الحقيقة ألفت

اللوم على المجلس الذي يستغرق الوقت في المناقشات . هنا وقف
 دزرائيلي يدافع عن المجلس . وينسب الأمر كله إلى سوء الإدارة
 الحكومية وعجز الوزراء ، وإذن لا عجب أن رأينا عدداً كبيراً
 من المشروعات المقدمة من الحكومة قد امتدت إليها يد التعديل
 والتشويه أو سحبت بعد ذلك ، ولا عجب أن تميزت الدورة
 « بفتنة في إنجلترا ، وتمرد في أيرلنده ، وثورة في أوربا » ، وما ذلك
 إلا نتيجة لقيام حكومة ليست لها أغلبية برلمانية ، وخلص من
 من هذا كله بأن صرح أن الحكومة الحزبية هي أساس التقدم
 والنجاح ، والواقع أن الوزارة كانت تعتمد على تأييد أحزاب
 عدة لا بد من إرضاء زعمائها ولهذا كان كل مشروع يقدم إلى
 المجلس يتعرض للتعديل المستمر حتى يخرج مشوهاً وقد فقد مميزاته
 الأولى . كان خطاب دزرائيلي قوياً إلى حد كبير ، وهذا الخطاب
 هو الذي ثبت زعامته وإن لم يكن بصفة رسمية .

ذكرنا أن بنتنك صوت إلى جانب المشروع الخاص بمسألة
 القسم . وقد أغضب تصرفه هذا زملاءه ، ولما فاتحوه في الأمر
 غضب وتنحى عن رئاسة الحزب وإن ظل موالياً له . غير أن موته
 واجه الحزب بأزمة شديدة إذ صار من المتعين اختيار زعيم
 يصلح لقيادته وتولى المعارضة في داخل مجلس العموم . وقد توقع
 الكثيرون أن يخلع هذا الشرف على دزرائيلي لأنه أكفأ رجال
 هذه الجماعة بلا منازع حتى أن الماسبرى قال عند سماعه نبأ موت

بنتنك « ليس هناك سوى دزرائيلي يستطيع أن يملأ مكانه ، بل
 إن الصحف أخذت تخوض في الموضوع ، وكتبت جريدة
 Morning Chronicle لسان حال أتباع بيل تؤكد قرب انتخابه .
 ولكن كانت هناك عقبات كثيرة تحول دون ذلك . فالكثيرون
 ينظرون إليه على أنه رجل يحوطه الغموض ولا يدرى أحد عن
 أهدافه الحقيقية شيئاً ، كما أن في بعض خلقه وطباعه ما يجعله يبدو
 غريباً على البيئة الإنجليزية . وفضلاً عن هذا لم ينس القوم موقف ذلك
 الرجل الغامض إزاء مسألة القسم ، كما ساء لهم رأيه عن العنصر اليهودي
 في كتاب نشره باسم Tancred ومجد فيه هذا الشعب ، وأخذوا
 يذكرون كيف أنه لم يعتنق المسيحية إلا بعد سنوات من ميلاده .
 وأخيراً فقد كان لورد ستانلي لا يميل إليه خاصة وأن اختياره
 للزعامة لن يسمح مطلقاً في المستقبل بإمكان تحقيق تألف حزب
 المحافظين من جديد ، لأن نفرأ من أكفاء أتباع بيل كانوا
 يضمرون الكراهية الشخصية لدزرائيلي ولا يغفرون له انقلابه
 على رئيسه وغدره به . وإزاء هذا كتب ستانلي إليه خطاباً
 أوضح فيه حرج الموقف ، وبين الحاجة إلى اختيار زعيم للحزب
 في مجلس العموم . ثم أثنى على دزرائيلي معرباً عن تقديره العظيم
 له وبخاصة مقدراته التي لا تجارى في المناقشة ومركزه الممتاز في
 المجلس ، ولكنه أبدى أسفه على عدم انتخابه نزولاً على رأى أغلبية
 الحزب ، ثم اقترح اسم Herries بدلاً منه ورجا دزرائيلي أن يقف

موقف المعاونة الصادقة . فجاءه رد مذهب ولكنه بارد . غير أن هريس أبى المنصب بسبب السن إذ بلغ الثامنة والستين . وهنا تقرر تأليف لجنة من ثلاث أحدهم دزرائيلي تتولى توجيه الحزب في المجلس . ولما افتتحت دورة سنة ١٨٤٩ صار من الواضح أن دزرائيلي هو الزعيم الفعلي وخاصة عند ما رجاء ستانلي أن يكون لسان حال المعارضة في تقديم الاقتراح بتعديل خطاب العرش . ولم تنته الدورة حتى تحدث عنه الخصوم والأنصار بصفته الزعيم ، فقد أشار رئيس الوزراء في خطابه الرسمي للملكة إلى زعامة دزرائيلي على أنها حقيقة واقعة ، ووصفه وزير المالية بأنه « الزعيم الحقيقي لحزب قوى » ، وتحدث رسل عن أنصار الحماية بأنهم « أتباع دزرائيلي » . وهكذا أصبح الرجل زعيماً للحزب لا نتيجة انتخاب نظامي ، ولكن طبقاً لعملية التطور التي قضت بانتقال الزعامة إلى الأصلح (١) .

وخلال المدة التي بقيت فيها وزارة رسل في الحكم تكلم دزرائيلي مراراً عن سياسة الحكومة في المسائل الخارجية . ويمكن تلخيص آرائه في هذا الموضوع في أنه يريد المحافظة على السلام على أساس التفاهم الدائم مع فرنسا ، والتقيد بالالتزامات التي تفرضها المعاهدات الدولية ، واجتناب التدخل في المسائل الداخلية المتعلقة بالأمم الأخرى بخلاف سياسة بالمرستون التي

أثارت عدااء الدول لانيجلترا، وكذلك بالابتعاد عن السياسة القائمة على أساس العاطفة كالتدخل فيما لا يهم البلاد الإنجليزية بحجة مناصرة الديمقراطية وتأييد الحركات القومية وتعديل الحدود الموضوعية. وبعبارة أخرى هو من أنصار السلام مع الشرف، أى السلام الذى تصحبه المحافظة على المصالح الإنجليزية ومصالح الإمبراطورية البريطانية.

ومن المسائل التى كانت تشغل باله ما وضعه نصب عينيه من حيث تعليم حزب المحافظين من جديد وخلق روح ومبادئ جديدة فيهم. لقد انفصلت جماعته عن ييل بسبب الخلاف على مسألة الحماية التجارية، ولكن الحماية ليست عقيدة لأنها لا تزيد عن كونها وسيلة لتحقيق غاية هى خير الزراعة الإنجليزية. وقد أثبتت الأيام أن حرية التجارة لم تكن نكبة على انجلترا، وأدرك دزرائيل بثاقب فكره أن محاولة إعادة الحماية لن يقدر لها النجاح إذ لا بد وأن تصطدم بمقاومة عنيفة من جانب معظم الطبقات، بل إن كوبدن نفسه قد حثه على الإقلاع عن هذه السياسة لأن عصرها قد انتهى. وفضلا عن هذا، إذا استطاع حمل الحزب على التنحي عن هذه السياسة فقد يصبح فى حيز الإمكان تضيق الهوة التى تفصله عن جماعة ييل، ولعل هذا يسهل عودة المحافظين جميعاً إلى وحدتهم فيصبحوا قوة هائلة ويستولوا على أعنة الحكم بعد إبعاد الهويج الذين يعدهم دعاائم الطبقة الوسطى التى يكرهها.

أما وقد استقر رأيه وحزم أمره على هذا الاتجاه الجديد ،
لهذا نرى معارضته في المجلس تتخذ مظهراً آخر فهو لا يجعل
مسألة الحماية في المقدمة وإنما عمل على المطالبة بتخفيف الأعباء
الواقعة على الزراعة . ففي التعديل المقدم على خطاب العرش في
دورة ١٨٤٩ قال : إن السياسة التجارية الجديدة قد أتت بها
فرصة كافية لتجربتها ولكنها أخفقت ، ثم أشار إلى أن السياسة
الصحيحة هي القائمة على مبدأ المعاملة بالمثل أو التبادل بطريقة
تعود بالخير على إنجلترا كما تكون في صالح المستعمرات . وفي
نفس الدورة قدم اقتراحاً بتأليف لجنة برلمانية للنظر في الأعباء
الملقاة على عاتق الأرض وبخاصة ما يتعلق بعدم المساواة في توزيع
الضرائب المحلية ، إذ ليس من العدل أن يقع عبء المحافظة على
الفقراء وإعانتهم ومسائل الإدارة وإصلاح الطرق على الأرض
وحدها وهي التي تمد البلاد بربع إيراداتها ، مع أن هذه المسائل
من الواجبات الاجتماعية التي ينبغي أن تتحملها كل أنواع
الملكية . رفض المجلس الاقتراح بأغلبية ٩١ صوتاً ، ولكن
النتيجة كانت مرضية من وجهة نظر دزرائيلي ، وهناك أصدقاؤه
وخصومه السياسيون على حد سواء . ولم تقف جهوده عند هذا
الحد بل إنه سعى إلى إقناع رجال الحزب بصلاحيته رأيه ، وبأن
ينبذوا الأمل في العودة إلى سياسة الحماية ، وأن يجعلوا هدفهم
المطالبة بسياسة المعاملة القائمة على مبدأ التبادل . ولهذا لما حدثت

حركة بين بعض طوائف الزراعة للمطالبة بالحماية لم يعمل على تشجيعها لا اعتقاده أن هذه الحركة مآلها الفشل ، بينما كان لورد ستانلي يؤيدها ويرجو من ورائها خيرا . وقد كان من أثر محاولات دزرائيلي مع رجاله أن تلقى خطاباً في أكتوبر سنة ١٨٤٩ من ستانلي بشأن هذا الموضوع . وقد أوضح الأخير أنه ليس على استعداد لنزيمبدأ الحماية الجزئية ، كما أنه يرى من المستحسن عدم تثبيط همم بعض من يلتمسون العودة إليها ، ثم أبدى قلقه بشأن ما يشعر به دزرائيلي من اليأس في إمكان التحول عن سياسة حرية التجارة بعد أن اتضح للكثيرين أن الآمال التي عقدت عليها كانت سرايا خداعاً . وعلاوة على ذلك ففي رأيه أن سيطرة الحزب على البلاد راجعة إلى التمسك بالمبادئ التي حارب من أجلها ، وعلى ذلك فإذا تحول عنها فقد تأييد تسعة أعشار أنصاره . وأخيراً فهو لا يوافق على العبارة التي ابتدعها دزرائيلي وهي « إعادة إنشاء الحزب » لأنها تحمل معنى تغيير الخطة والمبادئ . ولكن دزرائيلي ثابر على خطته وانحاز إلى رأيه عدد من رجال الحزب .

ولما بدأت دورة عام (١٨٥٠ - ٥١) طالب من جديد بتأليف لجنة للنظر في تخفيف أزمة الزراعة بإعادة النظر في قانون مساعدة الفقراء ، وهنا حدثت مفاجأة لم يتوقعها أحد ذلك أن غلادستون وقف يقول إن الزراعة على حق في شكواهم ، وإن

الاقتراح وسيلة مشروعة لإزالة الشكوى . ولما أخذت الأصوات
رفض الاقتراح بأغلبية ٢١ صوتاً فقط ، وصوت إلى جانبه أكثر
من ٢٠ من الهويج وما يقرب من ٢٠ من رجال بيل . ولا شك
أن نتيجة الاقتراح كانت فوزاً باهراً للذرائيل الذي استطاع بمهارته
وكفايته أن يهبط بأغلبية الحكومة إلى هذا الحد . وبعد ذلك أخذ
البرلمان يبدى اهتماماً بمشكلة الزراعة ، وتقدم بعض الهويج
باقترحات معينة حتى أن نفرأ منهم أشار بفرض رسم استيراد
على القمح ، كما رأى آخرون إلغاء ضريبة الجعة ، ومعنى هذا أن
يضيع على خزانة الدولة مبلغ ضخم يربو على أربعة ملايين
ونصف مليون من الجنيهات سنوياً .

وفي يونيه سنة ١٨٥٠ مات سير روبرت بيل ذلك الرجل
الذي ضحى بالحكم والمنصب في سبيل تنفيذ سياسة أعتقد أنها
في صالح بلاده . وقد شجع هذا الحادث دزرائيلي على أن يفكر
بصفة جدية في تآلف فريق المحافظين ، خاصة وقد أوضحت
الدورة إمكان التعاون بينهما كما حدث من غلادستون مثلاً .
وفعلاً اتصل بجراهام وغيره ، ولكن تحطمت المحاولة بسبب
تمسك ستانلي بمبدأ الحماية ، وإصرار أنصار بيل على أن يصرح
الآخرون علانية بأنهم قد أقلعوا نهائياً عن سياستهم .

وحدث أن هزمت الحكومة في فبراير سنة ١٨٥١ فقدم
رسل استقالته واستدعت الملكة ستانلي فاعتذر بعدم وجود

رجال أكفاء في حزبه عدا دزرائيلي ، ونصحها بتأليف وزارة
 ائتلاف من الهويج وأتباع ييل . عملت الملكة بنصيحتها واستدعت
 زعماء الحزبين ولكن الفكرة لم تنجح ، واضطرت الملكة إلى
 استدعاء ستانلي من جديد ، فأخذ هذا يتصل بدزرائيلي وعقد
 اجتماعا من أنصاره واستعرض الأسماء التي يصح التقدم بها إلى
 الملكة . ولكنه ما لبث أن شعر بخيبة الأمل وصرح لمولاته
 بالعجز عن أداء المهمة التي كلف بها . ولا شك أن دزرائيلي لم
 يكن ليوافق على هذا التراجع بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى
 من المنصب ، ولم تعجبه بطبيعة الحال تلك الخطط التي لا تتميز
 بالجرأة والشجاعة . وإذا وصل الموقف إلى هذا الحد بقيت وزارة
 لورد رسل في الحكم ، وهاجها دزرائيلي مرة هجوما رائعا حين
 بين أن واجبها أن تقدم بلا إبطاء التشريع اللازم للتخفيف عن
 أزمة الزراع . وحتى لا يتهم بأغراض خفية صرح أنه لا يرمى
 من وراء ذلك العودة إلى نظام الحماية لأنه يعتقد أن هذا لن
 يكون إلا بموافقة المجلس الدالة على تغير رأى أغلبية الشعب .
 قاومت الحكومة واستطاعت حمل المجلس على رفض الاقتراح
 ولكن بأغلبية هزيلة هي ١٤ صوتا مما حمل دزرائيلي أن يقول
 لأحد أصدقائه إنه واثق من أن الحكومة لن تتمكن من الثبات
 وقتا طويلا ، خاصة وأن الميزانية التي قدمتها قوبلت من الجميع
 بمظاهر الازدراء والاستنكار

في ديسمبر سنة ١٨٥١ ارتكب وزير الخارجية بالمرستون خطأ عندما أعلن موافقته على الانقلاب الذي أحدثه نابليون في فرنسا، دون استشارة زملائه في الوزارة أو معرفة رأى الملكة في الأمر. وهنا أخرجته رسل من الوزارة وكان ينفر من سياسة التحدى التي جرى عليها الوزير كأنما أراد أن يكون هو المسيطر الوحيد على الحكومة.

ولكن في الشهر التالي لإخراج وزير الخارجية انتقم لنفسه بأن صوت وأنصاره ضد مشروع قدمته الحكومة لتقوية نظام الميليشيا. وإزاء هذه الهزيمة التي منيت بها الوزارة قدم لورد رسل استقالته في فبراير سنة ١٨٥٢. استدعت الملكة لورد دربي^(١) وعهدت إليه بتشكيل وزارة.

(١) هو ستانلي المعروف لنا

الفصل الثامن

وزارة المالية

حل البرلمان في أول يولييه سنة ١٨٥٢ وأفهم اللورد دربي الملكة أنه سيحصل على الأغلبية في الانتخابات، وأنه قد عدل نهائياً عن فكرة فرض رسم على القمح. ولكنه لم يوضح هذا لجمهور الناخبين وهو خطأ كان له ثمنه إذ لو فعل ذلك لاستطاع أن ينال تأييداً في المدن. أما دزرائيلي فكان صريحاً في أثناء الحملة الانتخابية فصرح بضرورة تعديل نظام الضرائب المحلية حتى يصبح أدنى إلى العدالة، وإعادة النظر في نظام الضرائب الأهل بما يؤدي إلى خفض نفقات الإنتاج، ثم أعلن بلا لبس أو غموض أن الحكومة ليست لديها نية إرجاع القوانين التي ألغيت في عام ١٨٤٦. ومعنى هذا كله أن الحزب قد نبذ رسمياً سياسة الحماية الجمرية. ولكن لم يستطع المحافظون أن يحرزوا الأغلبية، لأن بعضهم لم يعدل عن آرائه القديمة، كما أن الهويج أذاعوا أن دزرائيلي إنما غير لهجته على سبيل الدعاية، وأن الحزب إنما يخاطب الدوائر حسب ميولها. غير أن البرلمان الجديد تميز بنقص كبير في عدد أنصار بيل إذا لم يتجاوزوا الأربعين. وإذا انتهت

المعركة الانتخابية أكبر دزرائيلي على إعداد الميزانية التي يعلق عليها الآمال في بقاء الوزارة في الحكم. غير أنه واجهته عقبة خطيرة ذلك أن قيام الإمبراطورية الثانية بفرنسا على يد نابليون الثالث أثار بعض المخاوف في البلاد الإنجليزية، وخشى البعض أن يكون ذلك الحادث مقدمة لنشوب حروب جديدة ولهذا طالبت الملكة ورجال الحرية والبحرية بتقوية وسائل الدفاع من قبيل الاحتياط. وبرغم أن دزرائيلي كان يدرك أن هذه المخاوف لا أساس لها فانه اضطر أن يدخل بعض التعديلات على الميزانية خاصة وأن زملاءه في الوزارة كانوا في صف التاج بصدد وسائل الدفاع.

كان بقاء المحافظين في الحكم نتيجة انقسام المعارضة والخلاف بين رجال الهويج. ولجأة تغير الموقف حين أعلن رسل عدم تمسكه برئاسة الوزارة، وهنا اشتد ساعد المعارضين، وأخذ خصوم الوزارة في مهاجمتها قائلين إن خطبة العرش لم تكن صريحة في موضوع الحماية أو الحرية، فغلا دستون طالب بتسوية هذه المسألة بصفة نهائية، وأصر كوبدن على ضرورة صدور تأكيد قاطع من الحكومة بأنها لن تعدل عن السياسة التجارية القائمة، وحتى بالمرستون - الذي كان موقفه من الوزارة ودياً - رأى أن تصريحاً رسمياً في هذا الشأن يكون في صالح البلاد.

وأخيراً قدم وزير المالية الميزانية في ديسمبر وهي تقوم على

مبادئ مختلفة أهمها العمل على أن يتفق نظام الضرائب في البلاد مع السياسة التجارية القائمة، وتخفيف حدة العداء بين الريف والمدن، واتباع سياسة عادلة لإزاء المصالح التي تأثرت بإلغاء الحماية، وإلغاء مظاهر الشذوذ الواضحة في نظام الضرائب، وإرضاء أصحاب المصالح من الزراع بدون إثارة غضب المدن. وقامت الميزانية على مبدأ حرية التجارة والسكنه أراد العمل على التخفيف عن مصالح ثلاث هي السفن والسكر والزراعة. فألغى رسوماً كان أرباب السفن يشكون منها، وعمل على إعانة صناعة السكر، وقرر الإلغاء التدريجي لنصف ضريبة الشاي لصالح المستهلك، وإلغاء نصف الضريبة على الجعة من الشعير وحشيشة الدينار. وأهم ما في الميزانية الطريقة التي أراد بها علاج ضريبة الدخل ففي خطاب أبريل أوضح أن الضرائب المباشرة يجب أن تكون عامة مع التمييز بين الدخل الدائمة وغير الثابتة وهو مبدأ عمل به في المستقبل.

هكذا ألقى دزرائيلي بيانه في الثالث من ديسمبر أمام مجلس يضم ثلاثة من وزراء المالية الذين تقدموه، وكوبدن الذي أصغى لعله يجد في البيان ما يشتم منه رائحة سياسة الحماية، وغلادستون صاحب السمعة العالية في المسائل المالية. وقد استغرق إلقاء البيان خمسة ساعات متوالية مع أنه لم يشف من الأنفلونزا التي أصابته إلا قبل ذلك بوقت وجيز. ولكن المعارضة هاجمت الميزانية بعنف، فانتقد غلادستون أي تعديل في نظام ضريبة الدخل

وأى تمييز بين أنواع الدخول، واعترض النواب الأيرلنديون
 على تطبيق ضريبة الدخل على بلادهم، ووصف وود الميزانية
 بالتهور الزائد عن الحد، واحتج جراهام على توسيع نطاق
 الضرائب المباشرة. وأخيراً وقف دزرائيلي ليتكلم فانتقد العبارات
 التي تفوه بها خصومه لأنها غير عادية وغريبة عن الوسط النيابي،
 أما وود الذي اتهمه بالتهور في مسألة توسيع نطاق ضريبة الدخل
 فيظهر أنه نسي أنه طالب المجلس يوماً بالموافقة على مضاعفة
 ضريبة الدخل في وقت لم تمس الحاجة إلى شيء من هذا فلما رفض
 المجلس وأذله عاد فعدل عما طلب. ثم قال دزرائيلي «ان الناس
 لن تصدق في المستقبل المؤرخ الذي يحدّثهم أن وزيراً جاء إلى
 المجلس يطلب مضاعفة الضريبة فلما رفض اقتراحه جاء في اليوم
 التالي ليعلن أن الوسائل التي بين يديه كافية بدون الحاجة إلى تنفيذ
 اقتراحه، ثم انتقل إلى الاعتراض بأن خفض ضريبة الجعة لن
 يفيد المستهلك فقال إن هذا رجوع إلى حجة أنصار الحماية حينما
 ألغيت الضريبة على القمح» أتقولون لي إن الحماية قد ماتت!
 أتقولون إنه ليس في البلاد حزب للحماية لماذا؟ إنه حزب واسع
 الانتشار وهو قائم بيننا!». ثم تابع كلامه «لقد نصحني وود أن
 أسحب الميزانية كما فعلت، وأنا أعلم أن غيره قد فعل نفس الشيء
 حديثاً». ثم أشار إلى وود بإصبعه وقال «إذا كنت لا أصبو إلى
 شهرة بت فإني لن أهبط إلى الإذلال الذي قبله سواه». وبعد ذلك

الدستور ليس بحاجة إلى التغيير ، وفضلاً عن هذا فإن آراء الحزبين متماثلة من حيث الإيمان بسياسة حرية التجارة . وقد اختير لورد أبردين للرئاسة وأشرك معه نفرأ من الممتازين أمثال غلادستون للهالية ورسيل للخارجية وبالمرستون للداخلية حتى تحدثوا عن الوزارة بأنها تمثل كافة ذوى المواهب والكفايات . أما توزيع المقاعد الوزارية فلم يكن متناسباً مع عدد أنصار كل حزب فى المجلس ، فنال كل من الهويج ورجال بيل ٦ مقاعد ، وخصص منصب واحد للراديكاليين ، مع أن الأخيرين كان لهم فى المجلس ما يقرب من ١٥٠ نائباً ، وكذلك نلاحظ أن الجماعة الأرنندية لم يمثلها أحد فى الحكومة الجديدة . وما كان من المنتظر أن تظل الوزارة فى الحكم طويلاً لولا أن نشأت ظروف سياسية خارجية هى التى ثبتتها فى كراسى الحكم ، كما أن هذه الأحداث نفسها هى التى ستمتلى بها خارج الحكم فيما بعد .

وإذ انتقل دزرائيل إلى المعارضة أخذ يوزع جهوده فى نواح مختلفة ، فعمل أولاً على تنظيم حزب المحافظين فى داخل المجلس حتى يجعل منهم كتلة واحدة متماسكة بحيث تسير وراء زعمائها وتؤيد قراراتهم وآراءهم ، وفى الوقت نفسه سعى إلى تنظيم لجان الحزب فى الدوائر الانتخابية استعداداً للمستقبل ، لأنه تعلم من دروس الماضى أهمية التنظيم الحزبى فى البلاد والحاجة إلى توضيح مبادئ الحزب للبلاد والسعى إلى اجتذاب الرأى

العام . وإلى جانب ذلك رأى من ألزم الأشياء إنشاء صحيفة أسبوعية تكون لسان حال المحافظين ووسيلة لإبداء آرائهم في نقد سياسة الحكومة وهكذا ظهرت صحيفة أسبوعية وجند لها الكثيرين من الأكفاء وكان يكتب فيها بنفسه كثيرا . ومن أمثلة الهجمات التي شنتها الصحيفة على الوزارة ما جاء في أحد أعدادها « ما الذي دعا إلى عدم الاستمرار في التقاليد الدستورية؟ لماذا لا يحكم البلاد حزب الأحرار أو حزب المحافظين؟ إن هذا راجع إلى اسباب شخصية تافهة فقط » . وعالجت الصحيفة مسألة الإصلاح النيابي بروح حرة حيث قالت : « إن الواجب الملقى على عاتق الساسة .. أن يدخلوا في نطاق الدستور كل شخص لا يكون دخوله في هذه الدائرة مصدر خطر » .

أما داخل المجلس فإن دزرائيلي اتخذ موقف المعارضة الصالحة إزاء الحكومة القائمة ، فلما قدم غلادستون الميزانية لم يستنكرها خصمه بل بالعكس هنأ عليها في نواح معينة قائلا إن معظم الأسس التي تقوم عليها هي نفس المبادئ التي أعدت ميزانية العام السابق بمقتضاها ، ولكنه انتقد بعض مظاهرها وتفصيلاتها الأخرى . ولما قدمت الحكومة مشروع قانون بشأن الهند انتهز دزرائيلي الفرصة وهاجم سياسة توزيع السلطة بين هيئات ثلاث هي الحاكم العام ومجلس إدارة شركة الهند الشرقية ولجنة المراقبة التابعة للحكومة البرلمانية ، وذكر أن هذا التوزيع

الخاطئ. لم ينبجم عنه سوى فساد الحكم وعجز الإدارة وانتشار الحروب والفتن وأعمال الفوضى. ثم اعترض على الحكومة إذ تسرعت بعرض مشروع بالغ الأهمية كهذا في أواخر الدورة النيابية، ونصح بتأجيل النظر فيه حتى يتسنى للمجلس التوافر على دراسته بطريقة وافية. غير أن الحكومة كانت حريصة على أن ينجح المشروع المقدم منها، ولذا أقره المجلس بأغلبية كبيرة. غير أن أقوال دزرائيلي تلقى ضوءاً على نظرته إلى الموضوع، فهو يريد انتقال السلطة الفعلية في الهند إلى أيدي التاج والبرلمان. وقد أثبتت حوادث الثورة الهندية فيما بعد صدق رأى الرجل في مساواة توزيع السلطة والإشراف على شؤون الهند.

لما تولى السلطان عبد المجيد عرش الدولة العثمانية عمل على إصلاح أحوالها الأمر الذي أدخل الخوف في نفس روسيا خشية أن تكون هذه الإصلاحات مقدمة لنهضة تحول دون تحقيق الأطماع الروسية، ولذا عرضت على الحكومة البريطانية حل المسألة الشرقية بصفة نهائية على أن تنال إنجلترا مصر مقابل ذلك، فأبقت إنجلترا الموافقة على سياسة كهذه لأنها كانت تعد سلامة الدولة العثمانية ضماناً لمواصلاتها مع الشرق. وهنا حدث أن تنازل السلطان عن بعض مفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس إلى الكاثوليك مما أغضب الأرثوذكس، ووقف نابليون الثالث إلى جانب الكنيسة اللاتينية حتى يكسب عطف

الكاثوليك في بلاده وحتى يعاكس القيصر الذي كان يطمع في تكوين تحالف ضد فرنسا عندما قام نابليون بانقلابه المعروف . هكذا تطورت مسألة تافهة حتى أصبحت صراعاً بين دولتين كبيرتين ثم انتهى الأمر بحرب قيل في شأنها : « إن الدم الذي أهرق فيها ترتب على خلاف بشأن مفتاح ونجم » .

لجأ القيصر إلى الإرهاب وطلب من الدولة العثمانية أن تعترف به الحامي الشرعي للمسيحيين في مختلف أرجائها ، وهذا طلب ينم عن المغالاة في الادعاء ، إذ معناه أن يصبح للروسيا السيطرة الفعلية على أملاك تركيا في القارة الأوربية . ولم يقف القيصر نيقولا عند هذا الحد ، بل إنه أرسل منشيكوف إلى الأستانة يهدد السلطان إن لم يرضخ لمطالب روسيا ، ولكن الأخير أبى إجابة هذه الدعاوى ، فما كان من القيصر إلا أن أرسل جيوشه لاحتلال ولايتي الأفلاق والبغدان في يوليو سنة ١٨٥٣ .

لم يكن لانجلترا اصالح في هذا الخلاف الديني الخاص بالكينيسيتين ، ولكن العمل الذي أقدمت عليه حكومة القيصر عد نذيراً خطيراً ومقدمة للزحف على الأستانة والقضاء على سيادة الدولة العثمانية في البلقان . حقيقة لم تكن وزارة لورد أبردين راغبة في الاشتباك في حرب مع روسيا ، ولكنهما لم تكن لتسمح لهذا الإعتداء ، أن يمر ببساطة ، ولذا أوعزت إلى السفير البريطاني في الأستانة ، لورد ستراتفورد دي رذكليف ، أن يقاوم السياسة والأطماع

الروسية . وكان الأخير واسع الدراية بشؤون الشرق وعدوا
للروسيا ، ونصحوه لورد بالمرستون أن يتخذ خطة الحزم وأن يقف
إلى جانب السياسة الفرنسية التي أوعزت إلى السلطان أن يقاوم
المطالب الروسية . عقد مؤتمر في فيينا وضع صيغة غامضة بخصوص
حق حماية المسيحيين ، فرفضتها تركيا وأصرت على أن يعترف لها
صراحة بأنها وحدها صاحبة الحق في حماية الرعايا التابعين لها .
فاجتمع مؤتمر فيينا من جديد ، ولكن حدث أن دمر الأسطول
الروسي عمارة عثمانية في سينوب وبذا أصبحت له السيادة في البحر
الأسود ، ونشبت الحرب بين الدولتين وأرسلت إنجلترا وفرنسا
أساطيلهما إلى البحر الأسود ، الأمر الذي عده القيصر إهانة بالغة .
ثم أرسلت الدولتان الغربيتان إنذاراً إلى روسيا يطلبان فيه
إليها احترام سلامة الدولة والجلاء عما احتلته من الأراضي
العثمانية والاعتراف للسلطان بحقه الكامل المطلق في كل ما له
علاقة برعاياه المسيحيين . وإذا أبت روسيا الانصياع إلى الإنذار
أنحازت الدولتان إلى تركيا وبعد قليل نشبت حرب القرم (١٨٥٤) .
لم يكن دزرائيلي مسئولاً عن هذه الحرب ، وقد خطب فيما بعد
ذلك بعشرين عاماً وقال : « لم يكن هناك أدنى دليل على إمكان
نشوب حرب القرم حينما اعتزلنا الحكم ، ولكن قيصر روسيا
اعتقد أن خلف لورد دربي لم يكن عدوا للاعتداء الروسي في
الشرق . » ولما ترامت أنباء الخلاف كثرت الأسئلة في البرلمان

الإنجليزى . وكانت الوزارة الائتلافية تقلل من شأنها وتجب على
 الأسئلة الموجهة اليها بما يبعث الطمأنينة فى النفوس ، وقد قنع
 دزرائيل بالأسئلة يوجهها إلى الحكومة ولكنه أخذ عن طريق
 صحيفته يهاجم السياسة الخارجية متهما إياها بالتردد وعدم
 الاستقرار . وقد كتبت الصحيفة تقول : « إتنا على وشك
 مشاهدة أحداث عظيمة ، وإنه ليحسن بالبلاد أن تكون على
 استعداد لوقوعها .. إن غلطة واحدة فى إدارة شؤوننا الخارجية
 قد تكلفنا أكثر من عدة سنوات من المحاصيل السيئة » . وفى
 مقال آخر حملت الصحيفة على الوزراء وتصريحاتهم وأعمالهم
 وترددهم .

وفى الوقت الذى كانت التطورات الخارجية تنذر بالخطر
 الشديد تقدمت الوزارة ببرنامج من التشريع يشمل مشروعا من
 رسل للإصلاح البرلمانى ، وهنا احتج دزرائيل على الوزارة التى
 تقدم إلى المجلس برنامجاً لإصلاح نظام الخدمة فى الحكومة
 والمحاكم الكنسية وقانون الفقراء ومجلس العموم فى الوقت الذى
 تعلم أنها على وشك الانغماس فى صراع أوربى عظيم . وقد سخر
 دزرائيل من هؤلاء السياسة بقوله : « ظننت أننا سنعلن الحرب
 على الروسيا ولكنى أرى اليوم أننا على وشك إعلانها على أنفسنا » .
 ولما أصبحت الحرب حقيقة واقعة انتهز دزرائيل الفرصة ، وألقى
 المسئولية على عاتق رئيس الوزراء الذى سبق له أن تفاهم مع

القيصر في عام ١٨٤٤ على أن حل المسألة الشرقية مما يعنى الدولتين وحدهما دون الاهتمام بإشراك فرنسا في الأمر، وبذا خيل للقيصر أخيراً أن حكومة أبردين لن تقاوم مشروعاته بصدد تركيا، وكان يحسن بالحكومة الإنجليزية حين علمت بتوجه منشيكوف إلى الأستانة أن تصرح بجلاء أنها تعزم الوقوف إلى جانب فرنسا ولن تسمح مطلقاً بتجزئة الدولة العثمانية. ولكن هذا لم يمنعه من أن يعلن أنه يعارض السياسة الروسية « لأن نجاحها في الاستيلاء على الأستانة معناه ازدياد نفوذها في السياسة الأوروبية، الأمر الذي يصبح مصدر خطر على المدنية الأوروبية، ويعود بالضرر على المصالح البريطانية ». فهو اذن يعد حرب القرم « عادلة، وإن لم يكن هناك داع لها .

لقد دخلت إنجلترا الحرب وهي غير مستعدة لها مطلقاً، فالجيش قد تناقص عدده وأعوزه التدريب والمران إذ لم يشترك في حرب أوروبية منذ معركة واترلو، وكان الضباط لا يقلون عن الجنود جهلاً بالفنون الحربية الجديدة، وفضلاً عن هذا كانت وسائل الإمداد والتموين تسودها الفوضى ومظاهر الاضطراب.

تمكن الأتراك من إجلاء الروس عن بلغاريا، كما أن الآخرين ما لبشوا أن جلوا عن الأفلاق والبعغان عسى أن يستدرجوا الحلفاء إلى داخل البلاد الروسية. ولكن هؤلاء نقلوا أعمالهم

الحرية إلى شبه جزيرة القرم، وعمدوا إلى مهاجمة ميناء سيباستبول، غير أن عملهم جاء متأخراً مما أتاح للروس فرصة تحصين هذا الميناء بحيث لم يكن للدفاع الأرضية والبحرية تأثير له أهميته. بدأ الحصار وطال زمانه، وقد أحرز الحلفاء النصر في بلا كلافا وإنكرمان ولكنهما من المواقع غير الحاسمة. ثم أقبل الشتاء الروسي بقسوته وأخذ بخناق الجنود، إذ لم يكن في الحسبان أن تدوم العمليات الحربية وقتاً طويلاً، وانتشر المرض في صفوف الجيش الإنجليزي بحيث أرسل لورد راجلان القائد العام إلى حكومته في يناير سنة ١٨٥٥ أن الجيش يضم ١١٠٠٠ يحملون السلاح، ١٣٠٠٠ في المستشفيات.

ترامت الأنباء إلى إنجلترا ووجدت فيها الصحف مادة وفيرة، واستغلتها المعارضة في تشديد الهجوم على الحكومة، واهتمتها بالعجز والقصور، وثارَت في البلاد عاصفة من الغضب والسخط. وفي ١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٤ دعى البرلمان إلى اجتماع غير عادي للنظر في الوسائل التي تكفل مواصلة القتال بما يلزم من الحزم والشدة. ولكن كل ما قامت به الحكومة تقديم مشروع يمكنها من استخدام ١٠٠٠٠ من الجنود الأجانب. ولا ريب أن عملاً كهذا فيه جرح كبير للعزة القومية، وحملت عليه المعارضة في المجلسين. وقد قال دزرائيلي إنه لا يعترض على اشتراك مواطنيه في القتال مع الأجانب إذا كان الآخرون حلفاء، ولكنه لا

لا يقبل بأى حال من الأحوال أن يحارب مواطنوه جنباً إلى جنب مع المرتزقة . وقد مر المشروع بأغلبية ١٣ فى مجلس اللوردات ، ٣٩ فى مجلس العموم . ثم تأجل البرلمان فى ٢٣ ديسمبر بمناسبة عطلة عيد الميلاد ، ولما عاد إلى الاجتماع (٢٣ يناير ١٨٥٥) تقدم النائب الراديكالى روبك باقتراح تأليف لجنة تحقيق ، وهنا قدم رسل استقالته وبذا تصدع الائتلاف الوزارى ، وأصبح واضحاً أن بقاء الوزارة فى الحكم مسألة أيام معدودات وقامت المعارضة بالجملة على الوزراء وطلبت اليهم الخروج من مناصبهم . وفى اليوم الأخير من المناقشة فى الاقتراح وقف دزرائيل يخاطب المجلس قائلاً : ليست لدى أدنى ثقة بالحكومة القائمة . لقد قلت ذلك منذ عام . . وإنى أسأل المجلس إذا لم تكن الإثنى عشر شهراً الماضية قد أثبتت صدق ظنى . . إنجاز الهويج من أنصار رسل ، ومعهم الراديكاليون ، إلى المحافظين ووافق المجلس على اقتراح روبك بأغلبية ساحقة . قدم الوزراء استقالتهم ، وأخفقت حكومة الائتلاف كما تنبأ بذلك زعيم المحافظين من قبل . لقد كانت الوزارة تضم مختلف الكيفيات فلم يمس على بقائها فى الحكم عامان حتى هوت بالبلاد إلى حضيض اليأس ، وما ذلك إلا لعدم توافر عناصر الانسجام والثقة المتبادلة ووحدة الرأى فى المسائل الداخلية والخارجية ، وبذا ثبت أن الحكومات

الحزبية أفضل بكثير من زميلاتها التي تستند إلى تأييد أحزاب مختلفة .

استدعت الملكة لورد دربي وكلفته بالنظر في تأليف حكومة جديدة فقبل بشروط . ذلك أنه كان يعتقد بضرورة إشراك رجال من غير حزبه حتى يتسنى السير بالحرب إلى نهاية مظفرة ، ولذا أراد أن يضم بالمرستون إلى الوزارة وفاتحه في ذلك الشأن فأبدى الأخير استعدادا للمعاونة إذا قبل كل من غلادستون وسدني هربرت الانضمام إلى الوزارة ، ولكن غلادستون علق موافقته على رضا لورد أبردين . وأخيرا أبى بالمرستون قبول العرض المقدم من دربي ، لأنه يدرك أنه الشخص التالي الذي يقع عليه الاختيار . وإذا أخفقت محاولات دربي أعلن للملكة عجزه عن القيام بأعباء الحكم ، وبذا ارتكب خطأ جسيما ، لأنه لو قبل وسار بالحرب بحزم وانتهى الأمر بالنصر لرفع سمعة المحافظين ولاجتناب جانبا كبيرا من الشعب إلى الحزب ، ولكنه أضاع الفرصة وجعل الحزب يشعر بخيبة الأمل واليأس من هذا التصرف غير السديد .

دعت الملكة بالمرستون إلى تأليف الوزارة فقبل ووفق في مهمته ، ومالبت أن نفخ من روحه في الأعمال الحربية ، فتدفقت المؤن والإمدادات على الجبهة ومد خط حديدي من بلا كلافا إلى ساحة القتال ، وأصلحت المستشفيات التي كان الجنود يموتون

فيها بالآلوف ، وبهذا أصبحت الظروف أدنى إلى إحراز النصر .
 وفي هذا الوقت انضمت بيدمنت إلى الحلفاء بفضل سياسة
 كاثور الذي رأى في ذلك فرصة لنيل عطف الإنجليز والفرنسيين
 في سبيل تحقيق مهمته وهي توحيد إيطاليا . وبعد قليل مات
 قيصر روسيا ، وما لبث حصن سياستبول ان وقع في أيدي
 الحلفاء . اضطر القيصر أن يخضع للأمر الواقع وأدرك ان
 مواصلة النضال لن تعود عليه إلا بالخسارة والنكبات ، فدارت
 المفاوضات التي انتهت بعقد صلح باريس في سنة ١٨٥٦ الذي
 أوقف — ولو مؤقتاً — تقسيم الإمبراطورية العثمانية .

وقد غضب بعض المحافظين للشروط التي اتفق عليها الطرفان
 وعدوها ثمناً ضئيلاً للتضحيات التي تحملتها البلاد ، حتى أن لورد
 دربي استعمل في مجلس اللوردات عبارة « تسليم باريس » بدلا
 من « صلح باريس » . غير أن دزرائيلي عدها مرضية ومنع حزبه
 من الهجوم العنيف على الحكومة بسببها .

الفصل التاسع

وزارة دربي الثانية

لما بدأت الدورة النيابية عام ١٨٥٦ دب نوع من الشقاق في صفوف المحافظين إذ ظهرت جماعة تعارض دزرائيلي ذلك الرجل الغامض ، وتنفس عليه زعامته ، وتعجز عن إدراك أهدافه وسياسته ، بل إنها أخذت تقول « اليهودي » في معرض الإشارة إليه . وكان دزرائيلي يأمل أن يعيد إلى المحافظين وحدتهم التي تصدعت عام ١٨٤٦ وذلك بضم أتباع بيل . وكان يعتقد بإمكان حدوث ذلك الأمر ، ويرتب عليه نتائج عظيمة من حيث توافر الأغلبية للمحافظين فيعودوا إلى الحكم بعد إقصائهم عنه عهداً طويلاً . غير أن بعض أنصاره كانوا ينفرون من فكرة الانضمام هذه ، لأنهم إما لا يؤمنون بإمكان تحقيقها ، وإما بدافع الكراهية الشخصية لغلادستون وغيره . وفي الوقت ذاته كان بعض المحافظين لا يوافق على سياسة الزعيم الحرة في مسائل التعليم . والواقع ، أن هذه المظاهر نجدها كذلك في الأحزاب لأن هذه الفترة من تاريخ إنجلترا كانت فترة انتقال وتعين على الأحزاب أن تحدد برامجها وموقفها إزاء المسائل العامة

بشكل واضح مما سنعرض له في فصل آخر .

أما حكومة بالمرستون فبدت ثابتة الأسس قوية الدعائم بفضل ما تمتع به رئيسها من سمعة عالية لما ناله من نجاح في حرب القرم . ولكن أخذت سياسة الوزارة الخارجية تثير المعارضة تدريجاً . ذلك أن شاه بلاد فارس كان قد انتهر فرصة حرب القرم فأقدم على غزو أفغانستان واستولى على هرات . ولما عقد صالح باريس رأى بالمرستون في خريف عام ١٨٥٦ ضرورة العمل الحاسم وأرسل جيشاً من الهند احتل معظم موانئ فارس الجنوبية واضطر الشاه نصر الدين إلى طلب الصلح مقابل الجلاء عن هرات . وفي سنة ١٨٥٧ قبضت السلطات الصينية في كانتون على سفينة تجارية صغيرة ترفع الراية الإنجليزية وزجت ببجارتها في السجن ، فما كان من بالمرستون إلا أن سير جيشاً وأسطولا لضرب الميناء ومعاقبة الحكومة الصينية على هذا العمل . أثار تصرف رئيس الحكومة استياء أمثال غلادستون والراييكاليين ولورد دربي . وكان دزرائيلي ينصح أتباعه بالحد من اتخاذ الحادث سبيلاً لإخراج الحكومة التي قد تصوره للشعب على أنه اعتداء على كرامة البلاد . غير أن دربي هاجم الوزارة في مجلس اللوردات هجوماً عنيفاً ، وكذلك فعل كوبدن وغلادستون ورسل وجراهام في مجلس العموم ، واضطر دزرائيلي أن يتكلم ولكنه سما عن التفاصيل ، وأوضح أن أشد ما تحتاج إليه البلاد

هو أن تسير في علاقاتها مع الصين وأمثالها من الدول الشرقية وفق مبدأ معين ، وذلك بأن تتعاون مع الدول الأوربية الكبرى في التأثير على الحكومة الصينية وتعديل خطتها عن طريق المفاوضات والمعاهدات ، ثم طلب إلى الحكومة أن تلجأ إلى إستفتاء الشعب بصدد المسائل التالية ، عدم ضرورة الإصلاح وهو ما تممها به ، فرض الضرائب الجديدة ، حادث كانتون ، غزو بلاد فارس . « فما كان من بالمرستون إلا أن أجرى انتخابات جديدة هزم فيها المحافظون ، وعاد بالمرستون بأغلبية ٣٧٠ عضواً من مجلس قوامه ٦٥٠ .

وهكذا حققت الانتخابات صدق ظن دزرائيلي من حيث عدم جدوى الالتجاء إلى أمثال هذه الحوادث لإخراج الحكومة ، كما أن هزيمة المحافظين أوضحت ما بهم من عوامل الضعف والانحلال والشقاق . انتصرت الحكومة ولكنه انتصار قصير الأمد إذ ستهب العاصفة بعد قليل .

في سنة ١٨٣٥ عينت حكومة ملبون لورد أوكلاند في الهند وكانت الحكومة الإنجليزية تساورها المخاوف من جراء روسيا وتراها جاراً خطيراً في المستقبل القريب ، ولذا أقدم أوكلاند على عمل لا يدل على شيء من حسن السياسة إذ عزم على إخضاع أفغانستان للوصاية أو التبعية البريطانية ، وعزل الأمير دُست محمد ونصب مكانه منافسه الشاه شوجا واحتلت القوات كابل .

غير أن هذا العمل أثار القبائل، وطردت القوات وقوامها ١٥٠٠٠ رجل (يناير ١٨٤٢) واضطرتها إلى الارتداد بطريق الممرات الجبلية بحيث لم ينبج منها سوى شخص واحد ليحمل أنباء هذه النكبة الهائلة والضربة القاسية لسمعة بريطانيا العظمى. سقطت وزارة ملبورن سنة ١٨٤١ وخلفتها أخرى برئاسة بيل الذي عين لورد إلنبروه في الهند، وهذا أقالع عن السياسة السابقة إزاء أفغانستان ولكنه قام بأعمال أخضع بها ولاية السند للنفوذ الإنجليزي. بعد ذلك وقعت المناوشات والحروب مع قبائل السيخ، غير أنه في سنة ١٨٤٩ توجه إلى الهند اللورد دالهوزي الذي بدأ عصرأ جديداً في الاستعمار البريطاني بالهند. وكان أول عمل له أن ضم بلاد السيخ وهي ولاية البنجاب، وكذلك ترتب على الحرب الثانية مع بورما ضم رانجون ودلتا نهر إيراوادي. وتميزت ولاية دالهوزي بإصلاحات جريئة تصادمت مع روح المحافظة على القديم، فعد الهنود الخطوط الحديدية والبرقية من أعمال السحر، وساءت جهود المبشرين المسيحيين وانتشار بعض مظاهر الحضارة الأوربية. واتبع الرجل سياسة الضم المنتظم إذا مات الأمير بدون عقب. وتبعاً لهذه السياسة أضيفت ولايات وطنية مستقلة إلى أملاك شركة الهند الشرقية. أما ولاية أود فيرجع ضمها كما قيل إلى سوء الإدارة مما جعلها مركزاً للفتن والاستياء. وفي سنة ١٨٥٦ صدر قرار يجعل الجنود

الوطنيين عرضة للسفر إلى خارج البلاد وركوب البحر إذا دعت الإعتبارات العسكرية ، وفي الوقت ذاته سرت إشاعة بأن الخراطوش المستعمل في البنادق مدهون بشحم البقرة المقدسة والخنزير الدنس ، مما أهاج الجنود من الهندوس والمسلمين . هذان هما السببان المباشرين للثورة التي بدأت في ميروت على يد جيش البنغال (١٠ مايو سنة ١٨٥٧) ، ثم امتدت نيران الحركة المعادية للإنجليز إلى حوض الكنج الأعلى وأصبح البعض يعتقد أن حكومة الإنجليز في تلك الإمبراطورية الشرقية المترامية الأطراف قد أشرفت على الزوال .

وصلت أنباء الاضطراب إلى لندن . ولكن لم تبد الحكومة اهتماماً بالأمر ، أو لعلها لم تنظر إليها على أنها حركة جديدة ، ولذا فوجئت بنشوب الثورة علناً واتساع نطاقها . أما دزرائيلي فكان يدرك المغزى الذي تنطوى عليه الثورة ، وسأل الوزارة عن أسباب التمرد وهل هو مجرد حركة عسكرية أم أنه ثورة قومية . ولقد أوردنا من قبل رأى دزرائيلي بشأن فساد نظام الإشراف على الهند التي كان يعدّها أئمن درة في تاج الممتلكات البريطانية . وقد انتهز هذه الفرصة فأشار على الحكومة بما ينبغي عمله « سواء جاءت الأنباء بالهزيمة أو النصر ، فعليكم أن تفهموا الشعب الهندي أن علاقاته بحاكمه الحقيقي — وهو الملكة فكتوريا — ستزداد تقرباً وتوثقاً .. يجب أن تبعثوا بلجنة ملكية في الحال إلى الهند

لتعرف عوامل شكوى الطبقات المختلفة . ويجب أن يصدر أمر ملكي يعلن لأهل الهند أن ملكة إنجلترا ليست بالحاكم الذي يوافق على نقض المعاهدات أو اضطراب نظام الملكية . بل إنها مستحترمة قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وفوق كل شيء دينهم . وبذا يبدو لنا كيف أن الرجل استطاع أن ينفذ إلى الأعماق ويحلل العوامل الأساسية في نشوب الثورة . زادت الحالة سوءا كما دلت على ذلك الأخبار الواردة في الخريف . وهنا قدم بالمرستون مشروعا أراد به القضاء على سلطان شركة الهند الشرقية ، ونقل الإشراف على الهند إلى أيدي مجلس ورئيس يكون نائب الملكة . وبرغم موافقة دزرائيلي على الفكرة من حيث المبدأ فإنه عارض المشروع على أساس أنه محاولة ظالمة من جانب الحكومة لتبرئة نفسها وإلقاء اللوم كله على الشركة ، كما أنه لم يكن يؤمن أن في الإمكان تحسين الأحوال مادام جماعة الهويج في الحكم . ولكن الذي حطم وزارة بالمرستون حادث مفاجيء لم يكن في الحسبان ، ذلك أن أورسيني الإيطالي ألقى قنبلة على عربة نابليون الثالث ، واتضح أن الرجل أعد القنبلة ودبر المؤامرة في لندن ، ولذا طالبت الحكومة الفرنسية بتعقب الشركاء والقضاء عليهم . قدم بالمرستون إلى البرلمان مشروع قانون يعاقب مؤامرات الاغتيال السياسي بالأشغال الشاقة المؤبدة سواء ارتكبت الجريمة في داخل إنجلترا

أم في خارجها . ومن سوء حظ بالمرستون أن لهجة الصحافة الفرنسية وبعض عبارات رجال الجيش الفرنسي كانت مليئة بالوعيد والتهديد مما أثار غضب الإنجليز وحمل المجلس على رفض المشروع ، وازاء هذا بادرت الوزارة بتقديم استقالتها (فبراير ١٨٥٨) .

استدعت الملكة لورد دربي ، ولما أخفق في محاولته نيل تعاون رسل وغلادستون ، شكل الوزارة من المحافظين مع أنهم أقلية في مجلس العموم ، وهو الأمر الذي جعل بقاءهم في الحكم مسألة وقت ، ورهينا بزوال الخلافات بين زعماء المعارضة . والحقيقة أنه ليست هناك عقبة تواجه وزارة أعظم من عدم استنادها إلى أغلبية برلمانية تؤيد سياستها . وفضلا عن هذا واجهت الوزارة صعاباً أخرى منها استياء حكومة فرنسا ، وعدم إخماد ثورة الهند ، وبقاء حالة الحرب في الصين ، والعجز الناشئ عن الأزمة النقدية التي وقعت في الخريف السابق ، كما أن الوزارة وعدت بتقديم مشروعات بشأن الهند والإصلاح النيابي ، وكلاهما من المسائل الشائكة .

أخذ دزرائيلي بصفته وزير المالية في إعداد الميزانية ، ولم يكن الأمر سهلاً إذ تعين عليه مواجهة عجز قدره ٤ ملايين جنيه بسبب زيادة الاعتمادات البحرية والعسكرية ، والالتزام بدفع ٣½ مليون جنيه من دين الحرب ، وقد قدر هذا العجز على

فرض هبوط سعر ضريبة الدخل إلى خمس بنسأت (كما تقرر عام ١٨٥٣) . وأعدت الميزانية على مبدأ أن ضريبة الدخل ليست من الإيرادات الدائمة وأنها ستلغى في سنة ١٨٦٠ . وهكذا استطاع دزرائيلي أن ينال تأييد غلادستون . ولا شك أن الميزانية التي قدمها دزرائيلي سنة ١٨٥٢ كانت أسلم من حيث المبادئ التي تضمنتها ، كما أن إلغاء ضريبة الدخل سنة ١٨٦٠ لم يكن منتظرا نتيجة لتزايد نفقات الدولة المطرد . وانهز الوزير فرصة استمرار الأعمال الحربية في الصين فأجل دفع قسط دين الحرب ، وبذا هبط العجز إلى نصف مليون جنيه ، وهذا عالج به رفع الضريبة على المشروبات الروحية في أرلنده ، ثم عمد إلى فرض رسم تمغة قدره بنس واحد على الشيكات حتى يتسنى له الحصول على فائض قليل ، وهذا العمل ضمن للدولة في المستقبل إيرادا يتزايد باطراد ، وقد نجحت الميزانية نجاحا كبيرا وأيدها المجلس .

غير أن مركز الحكومة تخرج بسبب المشروع الذي صاغه إلنبروه Ellenborough رئيس لجنة التجارة بخصوص تنظيم الحكم في الهند . ويقضى المشروع بتأليف مجلس من ١٨ عضوا يعين التاج نصفهم ممن له مؤهلات ودراية خاصة في المسائل الهندية ، أما النصف الآخر فينتخب أربعة منهم بواسطة لجنة ممن سبقت لهم الخدمة في الهند أو من لهم مصالح مالية بها ، وبعد ذلك يختار

الخمسة الباقون بواسطة الناجحين البرلمانيين في مدن لندن ومنشستر
وليثربول وجلاسكو وبلفاست. وهذا النظام المقترح يمتاز بطابع
التعقيد. وبرغم أن المجلس أجاز القراءة الأولى للمشروع من
باب المجاملة إلا أن الروح كانت معادية له إلى حد كبير واستنكره
حتى الأحرار المستقلون برغم موقفهم الودى إزاء الوزارة.
وكان بالمرستون يبدل غاية جهده حتى يحمل المجلس على رفض
المشروع ثم يستغل الفرصة لإخراج وزارة المحافظين. وقد
ترامت أنباء مساعيه من مصادر موثوق بها إلى دزرائيلي الذي
أسر الأمر في خطاب خاص إلى لورد دربي (٢ أبريل ١٨٥٨).
وفي هذا الوقت ارتكب إلنبروه خطأ كبيراً أعطى المعارضة
وخصوم الوزارة سلاحاً قوياً، ذلك أنه ظهر في إنجلترا منشور
أصدره كاتنج حاكم الهند العام إلى أهالي أود يعد بمكافأة الذين
ظلموا على ولائهم إبان الثورة الهندية ويتوعد الذين اشتركوا فيها،
بما يعد تصميماً من قبل السلطات على مصادرة أملاكهم. فما كان
من إلنبروه إلا أن بعث بمذكرة شديدة اللهجة إلى كاتنج فيها
توبيخ شديد لعمله هذا، وذكرته أن غيره من المنتصرين
يكثفون بمعاذرة نفر قليل من الشائرين، ولكنهم يظهرون روح
التسامح نحو الأغلبية ويعفون عنها، أما هو فقد عكس الآية،
وخالف التقاليد والسوابق. وختمت المذكرة بالعبارات الآتية
«إن رغبتنا تنحصر في أن نرى سلطان إنجلترا في الهند قائماً على

أساس رضى الأهلين ، ولا يمكن وجود الرضاء مع هذه المصادرة
 الإجتماعية . ولم تعرض المذكرة على مجلس الوزراء أو الملكة
 للوافقة عليها ، وإن كان صاحبها قد عرضها على البارزين من
 زملائه ومنهم دزرائيل فأقروها ، بسبب الروح التي أملتها ، غير أن
 موافقتهم لم تكن ذات صبغة رسمية . وكان من المستطاع أن يظل
 أمر المذكرة خافياً لولا أن النبروه أرسل نسخاً منها إلى جرائيل
 زعيم المعارضة وإلى بریت كبير الراديكاليين . أثار الحادث
 الاستياء ، لا بسبب المعنى الذي تنطوى عليه هذه الرسالة ، بل
 بل لأنه لا يجوز أن يصدر مثل هذا اللوم من وزير مسئول إلى
 مرظف من كبار موظفي التساج . سخط الرأي العام في داخل
 المجلس وخارجه ، ولكن دزرائيل صرح أن الحكومة تستنكر
 منشور الحاكم العام . وهذا وفاء منه لزميل له . غير أن خصوم
 المعارضة قدموا في المجلسين اقتراحاً بتوجيه اللوم إلى الوزارة .
 قدم النبروه استقالته إنقاذاً للهوقف ومراعاة لصالح زملائه
 وحزبه . ولكن المعارضة أثبت أن تكفي بهذا ، وأن تسمو على
 الاعتبارات الشخصية ، وأصرت على توجيه اللوم . وقد أنقذت
 الحكومة في مجلس اللوردات بأغلبية ٩ أصوات . أما في مجلس
 العموم فكانت المعركة حامية الوطيس وغاية في العنف ،
 واستخدم دزرائيل بوسائله المختلفة أقصى مواهبه السياسية
 والبرلمانية . وإذ وضح أن التيار ضد الوزارة قوى قادر على

اكتساحها حدث التفكير في حل المجلس والرجوع إلى جمهور
الناخبين ، فأبنت الملكة استخدام هذا التهديد ، ولكنها استشارت
صديقها اللورد أبردين الذي قال إنه ، وإن عارض في مبدأ التهديد
بالحل ، إلا أن قبولها نصيحة رئيس وزرائها بحل المجلس عمل
دستوري لا غبار عليه . وبناء على هذا أفهمت جلالتهما اللورد
دربي أنها لن ترفض طلبه إذا تقدم به ، ولكن رئيس الحكومة لم
يلجأ إلى هذا إذ تحول التيار وتحطمت المعارضة ، ذلك أن لورد
أبردين وجراهام قررا تأييد الوزارة ، وأعلن بریت أنه يعد
الإصرار على الاقتراح مسألة حزبية شخصية ، وصرح جراهام
أنه لا يشترك في معركة حزبية وخاصة بعد أن اعتبر استقالة
إلنبروه ترضية لكاننج ، وفي الوقت ذاته علم أن حاكم أود قد
سبق له أن احتج على المشروع ونصح كاننج بتعديله . إزاء هذه
الظروف ، مضافا إليها الخوف من حل المجلس ، قرر كاردول
(Cardwell) وبالمستون سحب اقتراحيهما ، وبذلك أحرزت
الحكومة ودزرائيلي في الواقع فوزاً مبيناً في هذه المعركة .

تعين على الوزارة اختيار خلف للعضو المستقيل ، وهنا أرسل
دزرائيلي خطاباً إلى غلادستون محاولاً حمله على قبول المنصب
والتعاون مع الوزارة ، ولكن الأخير أبى العرض . فتقرر نقل
ستانلي من منصبه ليحل محل إلنبروه . وعلى أثر ذلك قدم مشروعاً
جديداً أقره البرلمان ، وبهذا وفقت حكومة المحافظين إلى وضع

نظام لحكم الهند ظل قائماً وإن عدل في بعض تفاصيله . وينص القانون الصادر على انتقال سلطة شركة الهند الشرقية ومجلس الرقابة إلى وزير الهند ، وأن يؤلف مجلس من ١٥ عضواً ، يعين الوزير ٨ منهم والباقيون يختارهم مديرو الشركة ، على أن يكون أغلب الأعضاء ممن أقاموا عشر سنوات في الهند (١) . وقد أشار دزرائيلي بأن تصدر الملكية إعلاناً إلى أهل الهند ، وقد فعلت الحكومة ذلك وفيه وعدت الملكية باحترام العقائد والأديان ، وأن ينال كل فرد حماية القانون . كما جاء في الإعلان وعد بالعفو العام ، إلا من اتهم بارتكاب جرائم القتل . ولا شك أن هذا يتماشى مع ما دعا إليه دزرائيلي على الدوام من اتباع سياسة التسامح والعطف إزاء أهل الهند .

كان دزرائيلي لا يعد قانون إصلاح سنة ١٨٣٢ نهائياً أو غاية في ذاته ، كما لم يعتبر الإصلاح النيابي وقفاً على الهويج ، بل كان يصرح بالحاجة إلى إعادة تعديل نظام الانتخاب لمجلس العموم بحيث يزداد تمثيل الطبقة الصناعية . بهذا صرح في مؤلفاته وخطبه ، وبهذا نادى الصحيفة التي أنشأها وذلك منذ سنة ١٨٥٣ وبينت أن دربي هو الزعيم الحقيقي الذي يقع عليه واجب أحداث الإصلاح . وقد نجح دزرائيلي في أن يجعل فريقاً من

(١) عدل النظام في المستقبل فصار عدد أعضاء المجلس إثني عشر فقط يختارهم جميعاً الوزير .

المحافظين يميل إلى وجهة نظره من حيث ضرورة الإصلاح . وعلى هذا الأساس قدمت الوزارة مشروعاً لهذا الغرض ، برغم أن بعض رجال الحزب كانوا معارضين في الأمر وعدوه خروجاً على مبادئ المحافظين . وهذه هي الروح التي نصب دزرائيلي نفسه منذ تولى زعامة الحزب إلى هدمها والقضاء عليها . ويستند المشروع المقدم إلى أنه من الخطأ جعل التمثيل على أساس عددي ، بل إن الواجب يقضى بأن يمثل المجلس كل المصالح المختلفة في البلاد ، وبهذا يجب توزيع التمثيل على البلاد كلها بحيث يكون المجلس صورة معبرة عن روح البلاد ومدى التطور الذي حدث فيها منذ عام ١٨٣٢ . كانت مقابلة المعارضة للمشروع عدائية ، وبدأت المناقشة في القراءة الثانية في ٢١ مارس واستمرت ما يقرب من أسبوعين . خطب بريت فقال إن المشروع بالشكل الذي هو عليه ليس النوع الذي يراه دزرائيلي أصحح للبلاد ، وكان خطاب رسل كله عداء ، وتتابع الكثيرون . رد دزرائيلي على الناقدين ، فقال إن المشروع يقوم على مبادئ ثلاث : زيادة عدد الناجحين مع تنويع طبقاتهم ، رفع نسبة التمثيل للجماعات التي نمت منذ سنة ١٨٣٢ ، ثم الإبقاء على نظام المدن ذوات الإمتيازات القديمة كالوسيلة الوحيدة لتمثيل مختلف المصالح في البلاد . وقد حمل حملة صادقة على المعارضة التي تغير موقفها . أما عن لورد رسل فقد هاجمه بعنف شديد « أثق أن سيدي اللورد لن يسيئه

قولى إن هناك فى خلقه صفة ، هى عقبة فى سبيل حظه وعمله
أكثر مما هى ميزة تساعد . هذه الصفة هى عدم الاستقرار الذى
لا يتحمل الإبطاء والصبر اللازمين فى ظل حكومتنا الدستورية
لإدارة المسائل العامة . ففى اللحظة التى لا يكون فيها اللورد
النبييل فى الحكم يبدو أنه يعيش فى جو من الائتلافات
والارتباطات والانقلابات والاقتراحات التى تنم عن المكر ..
ففى سنة ١٨٣٥ قلب حكومة سير روبرت بيل بحجة لا تستند إلى
الواقع العملى ، وفى سنة ١٨٥٢ هدم حكومة لورد دربي عن
طريق ائتلاف لا هدف له ، وفى سنة ١٨٥٥ قضى على حكومة
لورد أبردين بحركة انقلابية شخصية ، وكذلك حطم حكومة
النائب المحترم عن تيفرتون بواسطة مناورة برلمانية وذلك فى سنة
١٨٥٨ . والآن أرجو من السيد النبييل أن يلقى ببصره لحظة إلى
الوراء ، إلى عام ١٨٥٢ . لقد كان جالساً إذ ذاك أمامى على رأس
جمع قوى ، ثم أطلق السهم القاتل الذى حطم حكومتنا ، ونجح فى
ذلك .. ولكن ألم يهدم شيئاً آخر ؟ ألم يهدم كذلك مركز سياسى
عظيم ؟ ألم يقرب من هدم ذلك الحزب التاريخى العظيم الذى كان
يوماً ما زعيمه الفخور المبجل ؟ . وبرغم هذا فقد أخفق
المشروع المقدم سنة ١٨٥٩ بسبب مناورات الهويج . وهكذا
أضاع أولئك القوم فرصة إصدار قانون معتدل فى روحه ، يتمشى
مع العصر ويطابق الظروف القائمة .

قررت الحكومة حل المجلس وأعلنت قرارها للمجلسين في الرابع من أبريل . أجريت الانتخابات ولكن سوء الطالع لازم المحافظين برغم أن الظروف كانت مواتية لنجاحهم : فقد أخذت ثورة الهند ، وتحسنت الأحوال في الصين ، وكانت البلاد موافقة على سياسة الحياد التي انتهجتها الوزارة إزاء الأحوال الأوروبية ، والنزاع بين النمسا من جهة و نابليون الثالث وملكة بيدمنت من جهة أخرى ، وكذلك كانت المعارضة منقسمة على بعضها ولم يعد بالمرستون أو رسل ينعمان بما كان لهما من تقدير كبير في نظر الرأي العام . وبينما كانت البلاد في المعركة الانتخابية أرسل دزرائيلي خطابا إلى بالمرستون ساعياً إلى ضمّه وجماعته إلى لورد دربي وبذا يضمن بقاء الوزارة في الحكم . ولكن بالمرستون اعتذر عن ذلك ، ولعله كان واثقاً أن دوره سيأتي بعد الانتخابات . وكذلك أخفقت جهود دزرائيلي في أن يضم عناصر أخرى من المعارضة إلى المحافظين ، وما ذلك إلا لأن المعارضين كانوا يحاربون خصماً واحداً ، كما كان الهويج يأملون العودة إلى الحكم . لم يحرز المحافظون الأغلبية ولم يمض وقت طويل حتى هزمت حكومتهم في المجلس فقدمت استقالتها في الحال ، وانتقل دزرائيلي من جديد إلى صفوف المعارضة . وفي نهاية هذه السنة فجّع دزرائيلي في موت أخته ساره التي كانت له - كما قال - أول صديق وأثبتهم على الإخلاص .

الفصل العاشر

فوز مزدوج

(قانون ١٨٦٧ - رئاسة الوزارة)

مات لورد بالمرستون في عام ١٨٦٥ . ويصح اعتبار هذا التاريخ بداية عصر جديد في تاريخ الإصلاح النيابي في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر . لقد جعل قانون ١٨٣٢ الشعب صاحب السيادة العليا ، وصيغ بحيث أمكن تمثيل نحو نصف الطبقة الوسطى . وما كان من المنظور أن يقف الأمر عند هذا الحد زمنا طويلا بعد أن انتشرت وسائل المواصلات الجديدة وربطت البلاد بعضها ببعض ، وبعد أن ازدهرت صناعة إنجلترا ، وزاد عدد أفراد الطبقة العاملة واشتد شعورهم بأهميتهم ، وبعد أن أخذت الآراء الاشتراكية تجتذب الأنصار . لهذا أخذت البلاد تسير في طريق الديمقراطية ، وبما ساعد على انتشار هذه الروح غلاستون ودزرائيلي . لقد ظل الأحرار حتى ذلك التاريخ تعلق بهم عقلية الهويج القديمة . وبرغم وجود فئة منهم طابعا التقدم والسير إلى الأمام ، فقد كانت الأغلبية لا تميل إلى الديمقراطية

الصادقة ، وترى أن الدستور قد وصل درجة من النضوج بحيث
 لا يجوز تغييره ، وعلى رأس هؤلاء كان بالمرستون نفسه . أما
 غلادستون فيمثل روح التقدم ، وقد أثار ضجة في أوساط
 الأحزاب لما صرح في عام ١٨٦٤ بأن كل فرد له الحق أن يدخل
 في دائرة الدستور ما دام لا يعد خطراً سياسياً ، أو يحول بينه
 وبين هذا الحق نقص ذاتي . فلها مات بالمرستون انفسح المجال
 أمام غلادستون ومن يرى رأيه من الأحرار . أما حزب
 المحافظين فقد تولى دزرائيلي تهذيبهم وتعليمهم خلال العشرين
 سنة السابقة ، إذ رأى أن الثورة الصناعية خلقت شعباً جديداً
 من الخطر إبعاده عن دائرة النظام البرلماني ، وأدرك أن انجلترا
 التي أصبحت أعظم دولة صناعية في العالم لا يمكن أن تظل خاضعة
 لحكم الأرستقراطية الزراعية ، . ويمن له فضل العمل على انتشار
 الروح الديمقراطية الجديدة الفيلسوف جون ستيوارت ميل
 الذي كان من أنصار الحرية السياسية وحرية الفكر والمناقشة .
 وبعد ذلك التاريخ وقف حزبا المحافظين والأحرار وجهاً
 لوجه ، واختلفت وجهات نظرهما إزاء المسائل الداخلية والسياسة
 الخارجية . حقيقة كان الحزبان يريان ضرورة الإصلاح النيابي ،
 ولكن الأحرار أخذوا يتجهون تدريجاً صوب الراديكالية ،
 ويطالبون بنقل السلطة من الطبقة الوسطى إلى الجماهير ، وذلك
 عن طريق توسيع حق الانتخاب إلى أقصى حد ممكن ، ويرون

ضرورة وضع نظام من التعليم القومي حتى يصبح الناخب أقدر
 على ممارسة حقوقه السياسية ، كما يجب العمل على حمايته من
 المؤثرات بإدخال نظام التصويت السرى . أما المحافظون فتقوم
 سياستهم على الحكم لصالح الشعب وإن لم يكن ذلك بواسطة
 الشعب ، ويرون أن يقوم حزبهم على مزيج من الإصلاح
 الإجتماعى والوطنية . ومن حيث المسائل الخارجية اعتقد الأحرار
 أن السلام هو أهم ما تحتاجه البلاد ، ولكن دزرائيلى كان يرى
 ضرورة اتباع سياسة خارجية ترفع سمعة البلاد وترمى إلى تقوية
 أواصر الإمبراطورية . وقدر كذلك للسياسة البريطانية أن تشهد
 فى العشرين سنة التالية لموت بالمرستون معركة رائعة وعظيمة
 بين زعيمين من أكبر رجال القرن التاسع عشر ، وهما غلادستون
 ودزرائيلى . فالأول يمثل طابع الجد وروح الدين ، ويؤمن
 بالحكومة بواسطة الشعب ، ويصرح باستعداده أن يقبل كافة
 الإصلاحات التى يرغب فيها الشعب وإن أدت إلى هدم أقدم
 التقاليد . أما دزرائيلى فيمتاز بالذكاء والنبوغ ومظهر من الخفة
 يخفى تحته إيماناً عميقاً ، وهو يؤمن بالحكومة التى تعمل لصالح
 الشعب ، ويعلم استعداده لقبول الإصلاحات التى تحترم أنظمة
 قديمة لا غنى عنها (١) .

ألف لورد رسل الوزارة وكان غلادستون الروح المحركة فيها ، ولذا قدم في مارس سنة ١٨٦٦ مشروعاً لزيادة تمثيل الطبقة العاملة ، فعارض المحافظون في الأمر ، كما أن نفرأ من الأحرار قاوموه ، إذ لا زالت تسيطر عليهم العقلية القديمة التي تمثل الطبقة الوسطى ، ووصل الحال إلى أن صرح أحد هم (Robert Lowe) بعدم استعداد العمال الأخلاقي والعقلي . هنا تحرك الآخرون ، وانتقلت المسألة إلى الرأي العام ، واضطربت البلاد ، وتزعم جون بریت حركة تطالب بمشروع أوسع مدى مما تقدمت به الحكومة . وإذ رفض المجلس مشروع غلادستون قدم رسل استقالته (يونه ١٨٦٦) .

عهدت الملكة إلى لورد دربي بتأليف حكومة جديدة ، ففعل برغم عدم استناده إلى أغلبية في المجلس . كان دزرائيلي قد شاهد النذر ، وأدرك أن موقفاً جديداً قد نشأ يستطيع فيه زعيم محافظ يؤمن بالطبقة العاملة أن ينقذ البلاد ، وأن يصبح رجل الساعة ، وأن يرفع سمعة الحزب ، وأن يقضي على الاعتقاد السائد أن الإصلاح النيابي احتكار للأحرار . والواقع ، أن حركة المطالبة بالإصلاح انتشرت انتشاراً واسعاً ، واشترك فيها رجال الطبقة الوسطى إلى العمال ، الأولون ليستكملوا تمثيلهم ، والآخرين لأنهم لا يكادون يمثلون في المجلس . لهذا تشجع دزرائيلي وحمل الوزارة على أن تعد بأن تولى مسألة الإصلاح عنايتها القصوى .

أخذت الوزارة تعد المشروع الذى تتقدم به إلى المجلس .
وهنا بدأ الخلاف فى صفوف الحكومة وأنصارها وهدد جنرال
بييل بالاستقالة . ولكن دزرائيلى الذى أراد الإبقاء على وحدة
الوزارة عدل عن فكرته الأصلية ، وضيق حدود المقترحات
إرضاء لزميله الذى أعلن فى اللحظة الأخيرة معارضته فى المبدأ
ذاته وأصر على الاستقالة . أبلغ الخبر للملكة التى أسفت لحرمان
الوزارة من خدمات ذلك الرجل الكفء ، ولكنها وعدت
دزرائيلى بتأييدها الكامل لأنها تعتقد أن مسألة الإصلاح البرلماني
أعظم أهمية من بييل . وهنا رأى دزرائيلى أن خير سبيل
ينتهي هو وضع مشروع أوسع نطاقاً من حيث تمثيل المدن ،
وهكذا كان رأيه فى بادئ الأمر . عرض المشروع الجديد على
الوزارة فأقرته بالإجماع على ما يبدو ، وتقرر أن يقوم دزرائيلى
بتوضيحه للمجلس فى جلسة الاثنين ١٧ مارس . وفى الساعة
التاسعة إلا ربعا من صباح ذلك اليوم وصلته الإشارة التالية من
دربي « مرفق بهذا ما تسلمته الآن وفيه الدمار التام . فما الذى
نستطيع عمله ؟ » . أما الذى أشار إليه رئيس الوزراء فخطاب من
كرانبورن Cranborne يهدد فيه بالاستقالة ، ويؤيده فى التهديد
زميل آخر هو كارنارفون . وقد علق دزرائيلى على ذلك فوصفه
بأنه « طعنة من الخلف » و « خيانة » . وهذا حقيق لأن الوزيرين
أقرا المشروع من قبل ، فمن العجب أن يعترضا فى اللحظة الأخيرة

الحاسمة على بعض تفصيلاته . لقد كان الموقف حرجا فالساعة بلغت الثانية ، وبعد نصف ساعة سيتحدث دربي إلى الحزب ، وفي الرابعة والنصف سيتقدم دزرائيلي إلى البرلمان ، حتى قيل إنه ليس أمام الوزارة سوى عشر دقائق . وحتى يمكن الاحتفاظ بتناسك الوزارة تقرر في الحال التقدم بالمشروع الأول الذي كان قد أعد إرضاء لبيبل ، وهذا ما عرف في التاريخ باسم « مشروع الدقائق العشر » . ولما انتهى دزرائيلي من كلامه تملكك المجلس روح الغضب الشديد . وهنا أدرك ألا مندوحة من اتخاذ الطريق الأقوم والتقدم بالمشروع الآخر ولو أدى الأمر إلى انفصال زميله . لقد قيل إن خير الأعمال أجرؤها ، وهذا ما اعتزم دزرائيلي عمله .

وفي ١٨ مارس قدم المشروع وخطب دزرائيلي فأبان أن الغرض منه أن يقوم المجلس على أساس شعبي واسع ، وأوضح أنه يؤدي إلى زيادة عدد الناحيين بنحو مائتي ألف . فتهض غلادستون يحمل على المشروع المليء بالقيود . وقد أراد الرجل انتهاز الفرصة ليلقي بالمشروع خارج المجلس ويقصى المحافظين عن الحكم ، ولكن بعض الأحرار المستقلين أبوا مسaire هذه الخطة وآثروا مؤازرة الحكومة وبعد أن تتابع الخطباء ما بين محبذ وناقد ، وقف دزرائيلي يعلن أن المشروع يرتكز على أساس شعبي رشيد « ثم وجه الكلام إلى غلادستون قائلا « إن السيد

المحترم ينهض فيخاطبني بلمهجة أراني مضطراً أن أعدها غير عادية في هذا المجلس . « وتناول أقواله مبيناً ما فيها من تناقض لأن هدفه الحقيقي إسقاط الحكومة . وبعد ذلك أوضح كيف أن مشروع الوزارة يخالف ما تقدمت به سابقها ، من حيث استناده إلى مبدأ معين وليس الغرض منه فقط منح حق الانتخاب لعدد معين من أفراد الشعب . ثم ختم كلامه موجهاً الحديث إلى المجلس « بالإصالة عن نفسي وبالنيابة عن إخواني أقرر أنه ليست لنا سوى رغبة واحدة هي الوصول إلى تسوية مشكلة الإصلاح النيابي بتعاون المجلس معنا . أقول اعملوا معنا يا خلاص وصراحة تجدوننا نعاملكم بنفس الروح . أقرؤا المشروع وبعد ذلك أبدلوا الوزارة إن شئتم . »

أحدث الخطاب أثراً طيباً في جو المجلس ، وكان من أعظم ما ألقاه من قبل حتى قيل إنه قرر مصير المشروع . وقد امتدحه زعماء الأحرار من أمثال رسل وهاستنجر ، أما زملاء دزرائيلي فقد أجمعوا على إبداء إعجابهم الشديد . وكتب ستانلي - الذي لم يكن متحمساً - يقول « كان خطاب ليلة أمس موضع سرور جميع أصدقائنا ، وأظن أنه أعظم ما ألقيت . » وإزاء هذا جمع غلادستون أنصاره وقرر المطالبة بتعديل بعض التفاصيل ، ولكن الأحرار المستقلين أدركوا الخطر إذ يؤدي إلى هدم المشروع فأبوا تأييد سياسة المعارضة الرسمية . وهنا قدم

غلاستون الاقتراح ، وانحاز اليه بریت ، واعتزم كرنبورن وزملاؤه التصويت إلى جانبه . اعترض دزرائيلي مبيناً أن ما تقدم به خصمه ليست تعديلات وإنما هي اقتراحات معارضة ترمى إلى هدم المشروع . فقال غلاستون إنه عاجز عن أن يفهم كيف أن الوزير يبدي استعداده للإلتئاس برأى المجلس ومع ذلك يرفض قبول التعديلات . اشتدت المعركة إذ تقرر أخذ الأصوات ، وظل غلاستون يؤمن بنتيجة تويده ، ولكن خابت ظنونه إذ أقر المجلس القراءة الثانية بأغلبية ٢١ صوتاً فكان ذلك صدمة عنيفة له . أما المحافظون فكان فرحهم بهذا الفوز بالغاً ، وهنأوا دزرائيلي في حماس شديد . وكتب مونتاجو كوري « إن اسمك على لسان كل عامل . . . لقد أحرز مستر - نصرأ عظيماً . »

انفض البرلمان بسبب عطلة عيد الفصح ، ولم تشأ المعارضة أن تسكت عن هزيمتها ، بل لجأت إلى عقد الاجتماعات العامة ، ونشرت الدعاية بأن المشروع ينكر حقوق الطبقة العاملة ، وهذا لا يتفق مع الحقيقة مطلقاً . ولما عاد البرلمان إلى الانعقاد نشطت اللجنة في دراسة المشروع وإعداد تقريرها ، ولكن غلاستون لم يحاول أن يقف موقفاً بارزاً ، وقدم غيره عدة تعديلات أخذت اللجنة ببعضها ونقحت البعض الآخر أو رفضته . وفي ١٥ يولييه مرت القراءة الثالثة ، وأرسل المشروع إلى مجلس اللوردات ، وأصبح قانوناً في ١٥ أغسطس سنة ١٨٦٧ . وهكذا تمت معركة

الإصلاح النيابي ، وحدث تعديل خطير ، لا على أيدي الأحرار وإنما بفضل المحافظين . وأهم ما في القانون الصادر أخذ ٥٨ مقعداً من البلدان الصغيرة لتوزيعها على المراكز الكبيرة ، ومنح حق التصويت في المدن لمن يدفع ضريبة الفقراء أو يسكن بيتاً إيجاره لا يقل عن عشرة جنيهات ، وفي الأقاليم لمن يقطن منزلاً إيجاره السنوي لا يقل عن إثني عشر جنيهاً .

وفي الولاية الاعتيادية التي تقام للوزراء في Mansion House قيل ختام الدورة خطب دزرائيلي مبيناً مدى العمل العظيم الذي تم وأهميته ، ونسب ذلك إلى ما كرس حياته له ، ألا وهو إعادة حزب التوري إلى مكانه اللائق بهم في حكومة البلاد . ومما جاء في الخطاب « حينما تحاولون تسوية مسألة ذات شأن فعلي الساسة أن يراعوا اعتبارين . فأولاً يجب أن يكون هذا المبدأ متفقاً مع عادات الشعب الذي تحاولون عمل التشريع له ، ، وقال « في البلاد التي تسير في طريق التقدم التغيير أمر دائم ، والمشكلة الكبرى ليست مقاومة التغيير الذي لا مفر منه ، ولكن هي هل يتم التغيير مع احترام عادات الشعب وقوانينه وتقاليده أم تبعاً لمبادئ معنوية ومذاهب عامة ، . ثم أيد السبيل الأول ، وهكذا نراه ينظر ببصره إلى المستقبل ، وما قد يتمخض عنه من تغيير ، وينصح بالطريق الأقوم في رأيه .

في الحقيقة ، كان قانون إصلاح سنة ١٨٦٧ فوزاً برلمانياً

لذرائيلي نفسه الذي لم يدخر وسعا في بذل أقصى مجهود لديه في الوزارة والحزب والبرلمان وخارجه حتى يمر المشروع . وقد قيل إنه تكلم أكثر من ثلاثمائة مرة بصدده ، وكان على أتم الاستعداد بالرأى والحجة ، ولم يكن ينكص على عقبيه في قبول أى اقتراح بتعديل يراه مؤدياً إلى تحقيق الهدف الذي رعى إليه . وهو نصر حزبي إذ استطاع أن يحرف المحافظين معه في تيار الديموقراطية فأيدوه خلاف ما فعلوا في سنة ١٨٣٢ . وبهذا مهدوا السبيل لتأسيس حزبهم من جديد على أساس قومي بعد أن أثبت مسلكهم أنهم لا ينظرون إلى الشعب وتوسيع حقوقه بعين الشك وفي الوقت نفسه كان هذا العمل ضربة للأحرار الذين لازمتهم الدعاية قبلاً بأنهم وخدمهم أنصار الإصلاح . أما الشعب فلا شك أنه اعترف بجميل دزرائيلي ، فقد زاد عدد الناخبين مليوناً بعد أن خرج المشروع للقراءة الثالثة وقد تخلص من القيود والضمانات المحيطة به . وهكذا صارت الطبقة الوسطى كلها ممثلة وأصبح كذلك العمال الصناعيون لهم حق الانتخاب ، وهذه خطوة لها أهميتها الكبرى إذ لم يعد بدون تمثيل سوى طبقة العمال الزراعيين . وقد أحسنت مجلة Punch وصف العمل الذي قام به زعيم المحافظين فرسمته على صورة أبى الهول بحر عربته إلى معبد الإصلاح نفر من الساسة البارزين من جميع الأحزاب ، سواء عن رغبة ذاتية أو خوفاً من سوط دزرائيلي .

أما الرسم المذکور فعنوانه « دزرائيلي في موكب النصر » ، وقد صدقت الوصف والتعبير ، ولماذا ؟ ألم تحاول الحكومات مدى سنوات طوال أن تحل المشكلة فأخفقت ؟ ونجح هو في برلمان ليست له فيه الأغلبية . وثمت أمر آخر : لقد كان المشروع معركة بين أعظم شخصيتين برلمانيتين ، وخرج منها دزرائيلي منتصرا على خصمه غلادستون . وأخيرا لقد نجح دزرائيلي فيما أخفق فيه روبرت بيل من قبل ، لأن بيل حطم الحزب في سبيل حرية التجارة بخيانة سياسة المحافظين كما وصفه خصومه ، أما دزرائيلي فقام بنفس العملية بصدد الإصلاح النيابي دون أن يهدم وحدة الحزب . ومن يدرى لعل السبب أنه نجح في تعليم المحافظين واجبههم الجديد أو لعله لم يجد (دزرائيلا) آخر يقف أمامه كما فعل هو من قبل مع زعيمه بيل .

كانت الوزارة — أو بالأحرى دزرائيلي — في شغل بإعداد مشروعات وتشريعات أخرى تعدها للدورة الجديدة ولكن داء النقرس اشتد على دربي ولم يستطع الاشتراك بنفسه في العمل حين استأنف البرلمان الانعقاد في ١٣ فبراير . ولم يلبث رئيس الوزراء أن أبلغ صديقه أنه يفكر في اعتزال الحكم بسبب سوء حالته الصحية . ولم يكن أحد يساوره الريب فيمن سيخلفه في رئاسة الحكومة ، وفعلًا كتب دربي إلى الملكة يقترح دزرائيلي خلفا له . وأخيرا أرسلت فكتوريا في طلبه وعهدت

إليه بمنصب كبير وزراء التاج ، فقبل المهمة وكتب إلى جلالتهما
شاكرًا عطفها وثقتها ، واستحق الرد الملكي السامي نقتطف
منه ما يأتي « تشكر الملكة مستر دزرائيلي على خطابه الرقيق الذي
تسلمته اليوم ، وتستطيع أن تؤكد له تأييدها القلبي في المهمة
الشاقة التي أخذها على عاتقه . وأنها للحظة نخر له أن يشعر بأن
مواهبه وخدماته الناجحة في سبيل مليكته وبلاده قد أكسبته المركز
العظيم الذي يشغله الآن . لقد وجدت الملكة دائما في مستر
دزرائيلي أشد الحماس في خدمتها والاستعداد لمواجهة رغباتها . . . »
لقد كان سرور دزرائيلي يفوق حد الوصف ، وعبر عنه بأبلغ
العبارات للكثيرين . هكذا نال الرجل ثمار ذكائه وشجاعته
وصبره وإخلاصه لعمله وتفانيه في أداء واجبه . لقد دفع القدر
ثمن العبقرية مرتين دفعة واحدة تقريبا .

أبلغ نبا التغيير إلى المجلس في ٢٥ فبراير ، وتقدمت الوزارة
في شكلها الجديد إليه في ٥ مارس (١٨٦٨) وفي العاشر من الشهر
بدأت المناقشة بصدد مسألة أرلنده^(١) وهنا انتهز غلادستون

(١) كانت المسألة الأيرلندية من الأمور الشائكة أمام إنجلترا . وتنحصر
مطالب الأيرلنديين في إلغاء الضرائب التي يدفعها أهل البلاد من الكاثوليك
للكنيسة البروتستانتية ، والقضاء على نظام الأراضي الضار بالمزارعين ، ومنح
البلاد الحكم الذاتي . ولما أغفلت إنجلترا هذه المطالب تطورت الحركة
فصارت تطالب بفصل أرلنده عن إنجلترا وإنشاء جمهورية بها ، وقد اشتدت =

الفرصة فطالب بإلغاء الكنيسة الأيرلندية البروتستانتية التي لا تمثل سوى أقلية ضئيلة من الشعب . لقد عرف رئيس الأحرار كيف يختار السلاح . والواقع كان مركز دزرائيلي في غاية الحرج : فهو قد صرح من سنوات أن هذه الكنيسة الغريبة من أغلبية أهل أيرلنده هي من مصادر الشكوى العادلة التي ضج بها الأيرلنديون ولكنه في الوقت نفسه زعيم الحزب المناصر للكنيسة الإنجليزية والمعارض في إلغاء شقيقتها في أيرلنده . انحاز الأحرار والراديكاليون والنواب الأيرلنديون إلى بعض وكونوا جهة واحدة تؤيد ما طالب به غلادستون . وقد نجح الأخير في نيل موافقة المجلس على اقتراح بهذا الصدد .

أجريت الانتخابات في نوفمبر ، وسعى دزرائيلي جاهداً في نيل تأييد الكنيسة الإنجليزية وزعمائها ، غير أن غلادستون وزعماء المعارضة بذلوا جهوداً جبارة ، ولذا أخفقت الوزارة في نيل الأغلبية . وكان في استطاعتها أن تتقدم إلى البرلمان وتنتظر مصيرها بأن تهزم في مسألة تعيين رئيس المجلس أو تعديل خطاب العرش . وكانت السوابق تبرز ذلك كما فعل ملبورن في سنة ١٨٤١ ،

== ساعد جماعة Fenians ذات الآراء الجمهورية ، وحدثت اضطرابات عنيفة سنة ١٨٦٥ ولجأت الحكومة البريطانية إلى الشدة وإعلان الأحكام العرفية وغير ذلك .

ولكن دزرائيلي كان قد انتقد هذا التصرف . والآن لقد خذله المجلس السابق فلجأ إلى الرأي العام الذي أصدر حكمه عليه . وإذ أصبح من العبث البقاء في الحكم إلى حين افتتاح الدورة البرلمانية ، بادر الوزراء بتقديم استقالتهم ، وأوردوا فيها الدافع الذي حملهم على سلوك هذا السبيل ، وهو أنه مما يتفق (والخطأ التي التزموها) . وبما يؤدي (إلى تسهيل الأعمال العامة في ذلك الوقت) ، ولأن هذا خير (من الانتظار حتى يجتمع برلمان يشعرون أنهم لا يعتمدون فيه إلا على أقلية) . وبهذا الخطاب ، والأسباب التي ذكرت فيه ، وضعت وزارة دزرائيلي الأولى سابقة نيابية أو تقليداً دستورياً^(١) .

(١) اتبعت هذه القاعدة فيما بعد في الأحوال المماثلة ، وطبقها غلادستون (بعد انتخابات عامي ١٨٧٤ ، ١٨٨٦) ، وبيكونزفيلد (بعد انتخابات ١٨٨٠) ومستر رمزي مكدونالد (على أثر الانتخابات العامة سنة ١٩٣٤) . وخالف هذا التقليد سالسبري في عامي ١٨٨٥ ، ١٨٩٢ ، وبلدوين في سنة ١٩٢٣ ، بحجة أنه برغم ما تدل عليه نتيجة الانتخابات من وجود أغلبية ضد الوزارة ، إلا أنها أغلبية يعوزها عنصر التجانس . ولكن يلاحظ في هذه الحالات لم تبق الوزارة في الحكم بعد خطاب العرش .

الفصل الحادي عشر

فراع

بعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات توجه دزرائيلي لمقابلة الملكة، وأثناء الحديث التمس من جلالتهما الإناعام على زوجته، فلقى عطفاً وتشجيعاً، مما حمّله أن يكتب خطاباً بهذا الصدد ينم عن مبلغ ما يمكنه من الحب والتقدير لشريكة حياته، « التي يعزو إليها كل شيء ». لم تلبث مسز دزرائيلي أن أصبحت لادى بيكنزفيلد، وأرسل زوجها إلى مولاته السامية يقول « إن مستر دزرائيلي يعرض عند أقدام جلالته عميق شكره على عطف جلالته الذي يحل عن التقدير ». وقد رحب الشعب بوجه عام بهذا الإناعام الذي جاء مكافأة لرجل قضى سنوات طوالاً يخدم مليكته وأمته .

أما في البرلمان الجديد فقد امتازت معارضة دزرائيلي بطابع التحفظ مما أدهش الكثيرين، وحمل أعوانه على التساؤل، وأشاع التذمر بين أنصاره. ولكنهم جميعاً فاتهم أن الرجل قائد يعرف كيف يضع الخطط اللازمة، فتارة يشن الهجوم،

وتارة يلتزم مواقعه ، وعينه ترقب خطوط العدو . والواقع ، أن
 دزرائيلي رأى خصمه مستنداً إلى أغلبية برلمانية كبيرة ، وأدرك
 عقم محاولة زحزحة الحكومة سريعاً ، وفضل أن يدعها تقدم
 ما لديها من مشروعات وعدت بها ، علماً منه أن فترة النشاط
 لا بد أن تنتهي وهنا تحين الفرصة البصالحة . ودزرائيلي خير من
 يجيد الانتظار ، وخير من يؤمن بالزمن وتصاريفه إذا أحسن
 الفرد الترقب والانتفاع . وقد انتهز فرصة ما يشبه الفراغ ، فعمد
 إلى إخراج قصته لوثير Lothair التي لقيت رواجاً منقطع النظير ،
 وترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية ، وعظم الطلب عليها في
 الولايات المتحدة ، وصارت حديث القوم في كل مكان . ذلك
 لأن الناس لم تعتد أن ترى رئيساً للوزارة البريطانية يشغل وقته ،
 بعد اعتزال المنصب ، في كتابة رواية طابعها السخرية وروح
 الفكاهة . وبطل القصة شاب من النبلاء تنازع روحه قوات ثلاث
 تمثلها كنيسة روما ، والثورة الدولية ، وتقاليد المجتمع
 الإنجليزي . ويظهر لنا المؤلف أن الجمعيات السرية ونواحي نشاطها
 الدولي ، وكنيسة روما ودعاويها وأساليبها ، والصراع الأبدي بين
 العلم والإيمان — هذه هي القوى التي تعمل تحت مظهر
 الأرستقراطية الإنجليزية . وبرغم نجاح القصة العظيم فإن رجال
 السياسة لم ينظروا إليها بعين الرضاء ، وعجبوا ، بل وأسفوا ،
 لإقدام رئيس وزراء سابق على عمل من هذا القبيل بعد أن بلغ

هذه السن ! ورصل الأمر إلى حد التساؤل عما إذا كان من الخير ،
أو المستطاع ، الركون إلى هذا الرجل والثقة به .

مرت الأيام ، وإذا بدزرائيلي يخلع رداء التحفظ ، ويعود
إلى العمل والنشاط . فلما حدثت مسألة السفينة ألباما ومشكلة
التحكيم ، تدخل في المناقشة في المجلس ولكنته رأى من الواجب
الوطني أن يؤيد موقف حكومة غلادستون في ذلك الظرف
الدقيق ، وأكسبه موقفه هذا سمعة طيبة أخذت تعلو تدريجاً في
البلاد ، وترفع معها من شأن المحافظين . وقد دلل الشعب على
تقديره للرجل في مناسبات عدة ففي سنة ١٨٧١ انتخبه شباب
اسكتلنده الحرة مديراً لجامعة جلاسكو . وعندما توجه ولى العهد
إلى كنيسة سنت بول في فبراير سنة ١٨٧٢ ليرفع الشكر لله على
شفائه من مرضه ، استقبل الجمهور دزرائيلي بحماس ، بينما كانت
مقابلاته لغلادستون تشوبها روح العداء . وحدث أن توجه
وزوجته إلى منشستر في زيارة أصدقاء لها ، فوفدت عليه وفود
المحافظين من كل مكان في المنطقة . وهذه المظاهر ذات الدلالة
البالغة إن هي في الحقيقة إلا ثمرة جهوده التي بذلها — أثناء فترة
الركون والتحفظ — في سبيل تنظيم أداة الحزب ، وعمل الدعاية له
في طول البلاد وعرضها ، فأنشأ هيئة مركزية في هوايتهاول
وزودها بنخبة من الأكفاء ، وحمل زعماء المحافظين في مختلف
الدوائر على تأليف لجان فرعية على أساس ديموقراطي وعلى أن تضم

الأرستقراطية وأرباب المهن والحرف . وكان المشرف على الحركة
 چون إلدون غورست ، ولكن دزرائيلي كان يولى الموضوع عنايته
 واهتمامه . ويضع معلوماته وخبرته تحت تصرف غورست ، ولصالح
 الحزب . وهكذا أخذ الزعيم يستعد لمعركة الانتخاب القادمة .
 كانت لادى بيكنز فيلد تشكو سرطانا بالمعدة منذ عام ١٨٦٦ ،
 وإن جاهدت في إخفاء الحقيقة عن زوجها الذى كان على علم
 بالأم ، ولكنه كان يعمل غاية جهده للتحويل من شأن مرضها .
 اشتدت وطأة المرض عليها يوماً بعد آخر ، وأخيراً لفظت
 أنفاسها الأخيرة فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٧٢ . هكذا
 انقضت فى هذا العالم ، هذه الشركة الروحية التى دامت زمناً
 طويلاً ، وزالت من الوجود زوجة كانت تؤمن بزوجها فى الوقت
 الذى ينكره الآخرون ، وتحبوه بعطفها وتشجيعها إذ ينفر منه
 أو يشك فيه الغير ، وترفه عنه متاعب الحياة حين يأوى إلى الدار
 فيجد النظام والهدوء ، وتبسم له حين يعبس له الدهر فيستمد من
 بسمتها وحنانها قوة تعاونه على مجالدة الخطوب واستئناف
 النضال . زالت الزوجة التى ارتقت معه درجات سلم المجد والشهرة ،
 وانهار السند الذى كان يعتمد عليه ، وخيم السكون على ذلك
 البيت بعد أن زال منه صوتها . وانتقل دزرائيلي إلى مكان آخر
 للسكنى ، يعيش وحيداً منفرداً ، إلا مع كاتمسره المخلص الأمين .
 فكان يدخل إلى حجراته فيلبس صمّتا وسكوناً ، ويرجع بهذا كرتة

إلى داره الأولى وقد خلت من أهلها . . . ولكنه القدر، ولكنها الحياة، وكل نفس ذائقة الموت، فصبر جميل، والله المستعان .

رجل آخر ربما خر صريعا من الحزن وهو في تلك السن ولكن دزرائيلي عاد - كما بدا لمن حوله - أكثر نشاطا عن ذي قبل، حتى كأنما استمد من نكبته قوة جديدة. أخذت حكومة غلادستون تترنح وتقرب من السقوط، حتى أنها هزمت مرة في المجلس وقدمت استقالتها. فدعى دزرائيلي ولكنه أبي قبول المهمة. لقد شاهد المحافظين يزدادون قوة، ويعلمون اسمهم، ويكسبون ما تخسره الحكومة في الانتخابات الفرعية، وأدرك أن المستقبل لهم. لهذا رفض أن يتولى الحكم مع مجلس ليست له فيه الأغلبية، وآثر الانتظار واثقا أن البلاد ستعيده وقد منحته ثقتها وتأييدها. وإزاء هذا الرفض عاد غلادستون إلى الحكم، كي يخرج منه بعد قليل. ومن العوامل التي أضعفت مركزه سياسة المحافظة على السلام، وقبول مبدأ التحكيم في كل ما يمس مصالح إنجلترا، حتى هبطت سمعة البلاد في الخارج. سرى الاستياء إلى الرأي العام، حتى أن أحد المسارح مثل غلادستون يستقبل وفدا من الصين جاء يطلب إليه التنازل عن اسكتلنده. أخذ رئيس الوزراء يفكر في الأمر مليا، وأخيرا اهتدى إلى حلول ثلاث: أن يتنازل عن ذلك الإقليم في الحال، أو ينتظر قليلا ثم يتنازل عنه، أو يختار حكما للفصل

في الموضوع. وفضلا عن هذا فقد استاءت الطبقة العاملة من غلادستون، الذي برغم دعاويه وتصريحاته، سلبهم حقوقا كانوا يريدون منها المزيد، ذلك أن قانونا صدر في سنة ١٨٧١ وبمقتضاه أصبحت مختلف الأعمال التي تعتمد عليها اتحادات العمال في وقت الإضراب، غير قانونية.

والحقيقة أن العامل الأكبر في سقوط حكومة الأحرار أنها استنفدت ما في جعبتها من إصلاحات، ولم يعد لديها ما تقدمه، بينما المحافظون يعدون بنواح شتى من الإصلاح الاجتماعي، ورفع سمعة البلاد في السياسة الخارجية، مما اجتذب أنظار طوائف كثيرة من الشعب، وبخاصة الطبقة العاملة التي ساء لها ما أقدمت عليه الحكومة.

زادت هزائم غلادستون في الانتخابات الفرعية، ثم نشأ نزاع مع زملائه بسبب رغبته في انقاص الاعتمادات الحربية والبحرية حتى ينفذ مشروعه لإلغاء ضريبة الدخل. وإزاء هذه الظروف قرر حل مجلس العموم والرجوع إلى الرأي العام. أراد غلادستون أن يكسب المعركة بأن وعد بإلغاء الضريبة، فلم يعبأ دزرائيلي بذلك وقبل التحدي بمثله، فأعلن أن هذا الإجراء كان مما اقترحه المحافظون وعارضه خصومهم. أما عن تحسين أحوال الشعب فقد نادى به على أن يتم ذلك بالطريق الأقوم، لا بواسطة التشريعات المرتجلة. ثم حمل على الحكومة

التي لم تبد نشاطا خلال السنوات الخمس السابقة في السياسة الخارجية . أجريت الانتخابات ، وأحرز المحافظون الأغلبية ، التي زاد في أهميتها نجاحهم في المدن الصناعية الكبرى . تولى الحزب الحكم وله أغلبية تزيد نحو ٥٠ عضوا على كافة الأحزاب الأخرى مجتمعة . وهكذا انتصر دزرائيلي في النهاية ، وحقق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ، إذ أعاد تكوين المحافظين على أساس شعبي ، وسار بهم في الطريق الديمقراطي فكسبوا ثقة البلاد بعد نفى سياسي دام عهدا طويلا .

دعت الملكة دزرائيلي ، ذلك الرجل الذي وثقت به وأحبته وعظفت عليه . وعهدت إليه بتشكيل الوزارة ، ففعل شاكرًا جميلًا ، واعدًا بتأييد عرشها ورفع شأن بلادها .

الفصل الثاني عشر

في سبيل الإمبراطورية

في وليمة عشاء تقابل فردريك جرينوود رئيس تحرير صحيفة Pall Mall Gazette مع المالى المعروف هنرى أوبنهم الذى وصل حديثاً من القطر المصرى ، ومنه علم أن خديو مصر يتفاوض مع جماعة من الممالين الفرنسيين بشأن رهن أو بيع ما يملكه من أسهم شركة قناة السويس ، أدرك الصحافى أهمية ذلك النبأ . فتوجه فى ١٥ نوفمبر عام ١٨٧٥ إلى وزارة الخارجية ، وأنهى ما وصل سمعه إلى لورد دربي الذى تردد فى تصديق الخبر ، لعدم ورود ما يؤيده من القنصل البريطانى ، وإن وعد بابلاغ الأمر إلى رئيس الوزراء . أدرك دزرائيلى خطورة الموضوع وأهميته القصوى بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية . لقد كانت انجلترا خلال القرن التاسع عشر حريصة على إبعاد نفوذ أى دولة أوربية عن مصر ، وعارضت فى حفر قناة السويس — خاصة وأن تنفيذ المشروع على أيدي الفرنسيين فيه تمكين لنفوذهم فى هذه البلاد.

ولكن فتح القناة للبلاحة فتح أعين انجلترا إلى هذا الشريان المائى
 البالغ الأهمية بالنسبة إلى المواصلات الإمبراطورية حتى قيل إن
 وزارة دزرائيل عهدت إلى آل روتشيلد بالسعى إلى شراء القناة .
 أما الذى دفع اسماعيل الى التفكير فى التصرف فى الأسهم فهو
 ارتباك المالية المصرية ، بحيث تعين عليه الحصول على ما يقرب من
 ٤ ملايين من الجنيهات لدفع كوبونات الدين المستحقة فى أول
 ديسمبر ، وإلا اضطر إلى إعلان إفلاسه كما فعل السلطان من قبل ،
 وإذا كان اسماعيل لم يعتزم ، فى أول الأمر ، بيع الأسهم — كما
 قال للقنصل البريطانى — فالواقع أن رهنها لم يكن ليختلف عن
 البيع من حيث النتائج المترتبة عليه فى المستقبل ، إذ لن تتمكن
 مصر من دفع مبلغ الرهن ، وهنا تنتقل الأسهم إلى فرنسا التى
 تسيطر فى هذه الحالة على القناة سيطرة تامة . ولا نزاع أن هذه
 الخواطر جالت بذهن دزرائيل الذى أبرق فى الحال إلى ستانتون
 يستوضحه ، بادر القنصل بمقابلة نوبار باشا ثم الخديو نفسه ،
 وألح إلى أن بلاده لا يسعها أن تنظر بعدم الاكتراث إلى انتقال
 ملكية الأسهم إلى دولة أخرى . ثم طلب إيقاف المفاوضات
 حتى تتاح للحكومة البريطانية الفرصة فتقدم عرضا من قبلها ،
 الأمر الذى رحب به الخديو كثيراً .

عرض دزرائيل الأمر على الوزارة فى ١٧ نوفمبر فأقرت
 الموضوع من حيث المبدأ ، ولذا نراه يكتب إلى الملكة فى اليوم

التالى يقول « يبدو أن الخديو ، وهو على شفا الإفلاس . راغب في التخلص من أسهمه في قناة السويس ... إنها مسألة ملايين لعلها حوالى أربعة ، ولكنها تكسب من يحوزها نفوذا كبيرا في إدارة القناة . إنه لمن الحيوية بمكان ، بالنسبة لسلطة جلالتك وقوتك ، أن تصبح القناة ملكا لانجلترا » .

توجه ستاتون إلى الخديو ، وأبلغه استعداد حكومته لشراء الأسهم . وعد الخديو ببيع الأسهم لانجلترا إذا لم يوفق إلى عقد قرض بضمانتها . وفي اليوم التالى اتفق مع بعض المالىين الفرنسيين على أن يقدموا له مبلغاً قدره ٨٥ مليوناً من الفرنكات لمدة ثلاثة شهور بفائدة قدرها ١٨ ٪ ، وإذا ما عجز عن الوفاء انتقلت إليهم الأسهم ، وكذلك حصة مصر في أرباح القناة وقدرها ١٥ ٪ .

بدت الصعوبة في الحصول على المال في باريس ، وحاول دلسبس أن يحمل الدوق ديكاكز ، وزير الخارجية الفرنسية ، على استخدام نفوذه ، ولكن هذا تردد في الأمر ، واستطلع رأى الحكومة البريطانية التى أوضحت بما لا يحتمل الريب أنها تعارض في انتقال ما تملكه مصر إلى المالىين الفرنسيين . إزاء هذه الصعاب المالية والمعارضة البريطانية أخفقت فكرة الاستدانة . وهنا وافق اسماعيل باشا على البيع . وقد واجهت الوزارة البريطانية مشكلة دفع الثمن في أقرب وقت ، ولكن البرلمان فى عطلة . حدث أمر لا مثيل له ، إذ بعث دزرائيلى كاتم سره إلى الصديق روتشيلد

يطلب مبلغ أربعة ملايين من الجنيهات في الغد» سأل المالى الكبير عن نوع الضمان الذى يعرضه رئيس الوزراء، ولما أجاب كورى «الحكومة البريطانية» قال على الفور «ستحصل على المبلغ المطلوب». وقد يبدو على الرواية طابع القصة، غير أن الذى لا شك فيه أن دزرائيلى خالف التقاليد الدستورية المرعية، وعرض أموال الدولة لخطر الاشتراك فى عمل تجارى قد يعود منه ربح، وقد تنجم عنه الخسارة. ولكن الرجل كان بعيد النظر: فهو واثق من مستقبل الشركة، وهو فى الوقت ذاته يخدم مصالح بلاده. الحق، إنه بمثل هذه الحوادث تكونت الإمبراطورية البريطانية!

وافق اسماعيل على العملية فى ٢٣ نوفمبر، وجاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة فى اليوم التالى، واستطاع دزرائيلى أن يكتب إلى الملكة يقول «لقد تم الأمن، وأصبحت ملكاً لك يا سيدتى». وجاءه الرد بأن «هذا حقاً حادث عظيم وهام، وقد أحدث شراء الأسهم حماساً شديداً لدى الرأى العام. وهنأ الكثيرون دزرائيلى على ما وفق إليه، وحتى دلسبس رحب بالعمل الذى تم فى خطاب المساهمين، وأبان أن تعاون انجلترا حادث موفق بصدد نجاح الشركة. وكتبت ولية العهد من برلين فى ٣٠ نوفمبر إلى الملكة تقول «... أرى لزأما على أن أهنيك على العمل الأخير الذى قامت به حكومتك... إنه لما يدعو إلى الاغتياب أن نرى كيف

تم العمل السليم في الوقت المناسب . وإن كل فرد هنا يشعر بالسرور ، ويرجو أن يجلب ذلك الخير على إنجلترا . وحتى بسمرك نفسه أعرب عن ذلك وبنفس المعنى ليلة أمس ولما اجتمع البرلمان الإنجليزى دافع رئيس الوزراء عن شراء الأسهم بأنه من أعمال « السياسة العليا » . وذكر الأعضاء أن إنجلترا من كبريات دول البحر الأبيض المتوسط ، وتملك معاقل تسيطر على مياه هذا البحر . ولما كانت قناة السويس إحدى حلقات سلسلة الحصون الواقعة على الطريق إلى الهند ، فلا ريب أن شراء الأسهم فيه زيادة الاطمئنان إلى سلامة الملاحة الإمبراطورية . وليس أدل على الطابع السياسى لهذه العملية من قول صحيفة التيمس « إن الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر إلى هذا العمل . . . من نواحيه السياسية لا التجارية . سيعده مظهرة وشيئاً أكثر من مظهرة ، سيعده إعلاناً لنياتنا وشروعاً في العمل على تحقيقها . إن من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس منفصلاً عن علاقة إنجلترا المستقبلية بمصر . » (١)

اتجه دزرائيل بعد ذلك إلى تحقيق مشروع طالما جال بخاطره

(١) تيودور روزشتين : تاريخ المسألة المسألة المصرية ص ٩ (نقل)

عن التيمس عدد ٢٦ نوفمبر) .

ألا وهو إضافة عبارة « إمبراطورة الهند ، إلى القاب الملكية . قدم المشروع إلى البرلمان فواجه معارضة في المجلس ، كما انتقده جانب من الرأي العام ، وسخط عليه بعض الصحف وعلى رأسها التيمس . لقد جرت العادة أن تتفاهم الأحزاب على ما يتعلق بكرامة التاج . ولكن دزرائيلي أهمل الاتصال بزعماء المعارضة في هذا الموضوع . وقد اعترض البعض على المشروع بحجة أن لقب « إمبراطور » تحوطه معان سيئة قد تنبت في الأذهان ، وأنه قد يسيء إلى لقب ملك أو ملكة إنجلترا ، وأن كندا وأستراليا قد تطالبان بنفس الأمر . وقد رد دزرائيلي مفنداً هذه الاعتراضات ، وأبان أن اللقب لن يستعمل إلا فيما له علاقة بالهند ، حيث ينتظر أن يكون له تأثير هام في نفوس أهلها . أما عن كندا وأستراليا فمركزهما مختلف عن الهند إذ شعباهما من العنصر الإنجليزي نفسه . وأخيراً أقر المجلسان المشروع المقدم من الحكومة ، والذي سبب غبطة كبيرة للملكة فكتوريا ، وزاد من إعجابها برئيس وزرائها .

وفي أثناء المناقشة في المشروع قام لو Lowe بالنقد الشديد قائلاً إن إنجلترا قد تفقد الهند ، فقال دزرائيلي « إن السيد المحترم نبى ، ولكنه دائماً نبى الشر » . ولم يقف لو عند هذا الحد ،

بل إنه صرح في اجتماع خارج المجلس بما يحمل على الاعتقاد بان
 الملكة هي التي أوعزت إلى رئيس وزرائها بتقديم هذا المشروع،
 وعد هذا عملا غير دستوري. وقد هاجم دزرائيلي خصمه
 هجوما عنيفا في البرلمان على هذا الاتهام، وأبدى عجبه، أو
 استياءه، لصدور تصريح غير صادق كهذا من رجل سبق أن
 كان وزيرا في حكومة جلالة الملكة. وقد كان الرد قاسيا وحازما
 حتى كتب دزرائيلي إلى لادي شسترفيلد يقول عن لو (إنه في
 الوحل، وها أنا أتركه في مكانه هذا.)

الفصل الثالث عشر

السلم مع الشرف

شاهد القرن التاسع عشر نهضة قومية بين شعوب البلقان ، واشتد ساعد الحركة بعد أن أتمت كل من إيطاليا وألمانيا وحدتها . وبفضل تشجيع روسيا التي ، إلى جانب عطفها على الصقلية ، كانت ترمي إلى تمزيق الدولة العثمانية . والوصول إلى الأستانة والمضائق ، وإقامة دويلات بلقانية تدين لها بالتحريم والاستقلال . وفي يولييه ١٨٧٥ شبت الثورة فجأة في البوسنة والهرسك ، وأعلنت الدولة العثمانية إفلاسها في الشهر التالي . سارعت النمسا والروسيا وألمانيا إلى إرسال « مذكرة أندراسي » تطلب فيها قيام الباب العالي ببضع إصلاحات . فساء هذا العمل دزرائيلي ، وتردد في الانحياز إلى الدول الثلاث ، فلما رجته تركيا الموافقة فعل ذلك قائلا : « لانستطيع أن نكون أتراكا أكثر من السلطان . » ، وإذ لم تؤد المذكرة إلى أية نتيجة عرض بسمرك على الدول أن تطالب السلطان بعقد هدنة مع الثوار ، وتعمير البيوت المخرقة . ولكن

الوزارة البريطانية أوجست خيفة من نوايا روسيا خاصة، فأبت الموافقة على ماعده رئيسها «قفزة في الظلام»، وبادرت بإرسال الأسطول الإنجليزى إلى خليج بسىكا. وبرغم هذا تخرج الموقف فجأة إذ أعلنت صربيا الحرب على تركيا (٣٠ يونيه ١٨٧٦)، وحذا حذوها الجبل الأسود فى اليوم التالى مباشرة. أما كيف حدث ذلك فلأن «العالم لسوء الحظ» — كما قال دزرائيل فى البرلمان «لا يتكون من أباطرة وحكومات فحسب، بل يتكون كذلك من جمعيات سرية ولجان ثورية». ثم اشتد تطور الموقف حين وصلت الأنباء بالمذابح التى قيل إن الأتراك ارتكبوها ضد البلغار. تردد رئيس الوزارة البريطانية فى تصديق الروايات التى أذاعتها إحدى الصحف إذ لم يصل إليه خبرها من المصادر الرسمية. ولكن رأى العام ثار ثورة عنيفة، وأخذ الجميع يطالب الحكومة بعمل حازم. وقد استغل غلادستون الفرصة فنشر مؤلفه الصغير عن المذابح البلغارية وطالب حكومته أن تتعاون مع الدول الأوروبية الأخرى للقضاء على كيان الدولة العثمانية فى أوروبا. وقد أحدثت عبارات الرجل تأثيراً عميقاً فى رأى العام، وعلق بيكونز فيلد على المؤلف بقوله فى خطاب إلى دربي «ستصدر الأجيال القادمة حكمها العادل على غلادستون، ذلك المجنون الذى لا مبدأ له. إنه

لمزيج شاذ غريب من الحسد وحب الثأر والنفاق والتعلق
بالخرافات .

في ١١ أغسطس سنة ١٨٧٦ وقف دزرائيلي في مجلس العموم
يرد على هجوم عنيف من جانب المعارضة بسبب مسألة المذابح
البلغارية . ولما انتهى من أقواله غادر مكانه ، ولاحظ البعض أنه
أطال النظر في جنبات المجلس بطريقة غير مألوفة . لقد كانت الليلة
آخر عهده بهذا المكان ، إذ صدر في اليوم التالي الإنعام السامي عليه
بلقب إيرل بيكونز فيلد . وبذا انتقل إلى مجلس اللوردات ! لقد
كان الرجل على حق إذ أطال النظر في نواحي المجلس الذي ظل
عضواً فيه مدى أربعين عاماً . ولا ريب أنه تذكر في تلك اللحظة
الرهيبة خطابه الأول وما لقيه من سخيرية : وعادت إلى ذاكرته
صورة الصراع الرهيب بينه وبين سير روبرت بيل ، ثم معارك
السياسة والبلاغة التي نشبت بينه وبين غلادستون .

أما عن الموقف الدولي فقد عقد مؤتمر للنظر في المشكلة
الشرقية ، فلم ينته إلى نتيجة بسبب إبقاء الباب العالي الإصلاحات
التي اقترحها المؤتمر . وظلت روسيا ترقب الأمور حتى يكمل
استعدادها ، وأخيراً أعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ٣٠ أبريل
سنة ١٨٧٧ . ولم يقف بيكونز فيلد ساكناً . لقد كان يدرك خطورة

الحال ، ويعلم أطماع روسيا ، ويخشى نتائج الحرب . ولكنه كان مصمماً أن يحول دون فوز روسيا ببغيتها كاملة ، ولذا حمل وزير الخارجية لورد دربي على أن يبعث إلى هذه الدولة بما يصح اعتباره إنذار نهائى يذكرها بالابتعاد عن قناة السويس والخليج الفارسى وبوغاز البسفور ، لأنها من المناطق ذات الأهمية الحيوية بالنسبة إلى مصالح بريطانيا العظمى . وأكثر من هذا نال موافقة الوزارة على إعلان الحرب على روسيا إن أقدمت على احتلال الأستانة . لقد كان الرجل جاداً بشأن السياسة التى يعترف السير عليها فيما عده فى صالح بلاده ، ولذا جاءت العبارة التالية فى خطاب العرش فى ٢١ يناير سنة ١٨٧٨ «ولا أستطيع أن أخفى عن نفسى أنه إذا طالت الأعمال الحربية لسو. الحظ ، فقد يقع حادث غير متوقع يجعل لزاماً على أن أتخذ بعض الإجراءات التى تقضى بها الحيلة . » ولم يكتف بكونه فيلد بذلك بل حمل الوزارة على إرسال أسطول إلى البوغازات ، الأمر الذى لم يوافق عليه كل من لورد كارناقون ولورد دربي فقدمتا استقالتيهما ، ولكن ما لبث الأخير أن عاد بعد قليل إلى جانب زملائه .

برغم استماتة الأتراك فى الدفاع حلت بهم الهزيمة وأرغموا على توقيع معاهدة سان ستفانو فى ٣ مارس ١٨٧٨ ، التى أرسلت

صورتها إلى الحكومة البريطانية بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. أثارت شروط الصلح الاستياء، وتقرر عقد مؤتمر دولي للنظر فيها. ولكن روسيا صرحت أن لها مطلق الحرية في قبول أو رفض قرارات المؤتمر. وقد سخط بيكونزفيلد على التصريح وعده شبه إنذار، وتوقع قيام حالة يتعذر فيها منع نشوب الحرب، حتى أنه كتب إلى Gathorne Hardy يقول: «إننا نتجه صوب الحرب، ولكن إذا أبدينا البسالة والعزم فسنحصل على السلام، ونملئ شروطه على أوروبّا». واجتمعت الوزارة البريطانية وقررت دعوة الاحتياطي، وجلب قوة من الهند للاستيلاء على قبرص والألكسندرونة. غير أن لورد دربي أبى الموافقة على هذه السياسة الرامية إلى إحتلال مواقع أخرى على طراز جبل طارق، ولذا بادر بتقديم استقالته. وهكذا افترق الصديقان القديمان نهائياً. ومن المؤلم أن يقوم دربي بعد ذلك بمهاجمة صديقه القديم في أكثر من مناسبة، وبلهجة امتازت بقدر كبير من العنف والقسوة. إزاء هذا الموقف الحازم رضخت روسيا، إذ لم تكن راغبة في الاشتباك في حرب مع الإمبراطورية البريطانية، فوافقت على إنقاص المساحة التي قررتها معاهدة سان ستيفانو لبُلغاريا إلى ما يقرب من النصف. وفي الوقت نفسه عقد بيكونزفيلد اتفاقاً سرياً مع

الدولة العثمانية تنازلت فيه عن جزيرة قبرص لانجلترا . وفي ١٣ يونيه افتتح مؤتمر برلين .

توجه بيكونزفيلد إلى العاصمة الألمانية ، ونزل في فندق Kaiserhof ، حيث وجد في انتظاره كاتم سر بسمرك يبلغه رغبة سيده في مقابلته في أقرب فرصة . وكذلك ألقي المائدة مليئة بطاقات الزهور المحببة إلى نفسه ، بعثت بها كريمة فكتوريا ، حتى أنه كتب إلى الملكة يقول « لقد أغدق ولي العهد والأميرة مظاهر العطف على لورد بيكونزفيلد . ومما يزيد في شعور الغبطة بها أنه يشعر أنها راجعة ، إلى حد ليس باليسير ، إلى إحياء من يدين له بكل شيء » .

دارت المفاوضات ، وفجأة تلبد جو المؤتمر بالغيوم بسبب الخلاف على الحدود البلغارية . تعذر الاتفاق ، وتحدث السكل عن احتمال الفشل . وهنا ألقى بيكونزفيلد قبيلته ، إذ أمر بإعداد قطار يقبله ومن معه إلى كاليه ، لأنه كان مصمما أن يفرض المؤتمر إذا لم تقبل وجهة نظر بريطانيا العظمى وتحترم إرادتها . توجه بسمرك يسأل إن كان في الإمكان إيجاد حل وسط ، فرفض بيكونزفيلد ، وهنا سأل المستشار الألماني « هل لي أن أعد هذا إنذاراً نهائياً ؟ » فكان الرد بالإيجاب . خرج بسمرك ، وسويت

المسألة طبقاً لرأى انجلترا ، وأبرق لورد بيكونز فيلد إلى الملكة
يقول « عادت تركيا من جديد إلى أوربا » فجاءه الرد بأن « كل
هذا راجع إلى نشاطك وحزمك » .

عاد لورد بيكونز فيلد إلى لندن حيث وجد ميدان الطرف الأغر
يموج بالجموع المحتشدة لتحيته ، ودام الهمساف طويلاً في
داوننج ستريت حتى أطل على الألوف من القوم قائلاً « أظن
أننا أتيناكم بالسلام مع الشرف » .

الفصل الرابع عشر

نهاية قصة

عاد دزرائيلي من برلين يحوطه المجد ولكن قاتل الله السياسة إذ لا صديق لها . فقد توالى أحداث أفقدت بكونز فيلد ما أحرز من سمعة طيبة . ذلك أن الزراعة البريطانية انتابتها أزمة عنيفة ، وبذا تحقق أخيراً قول أنصار الحماية إن الزراعة الإنجليز لا يستطيعون الحياة في جو المنافسة الطليقة . وكذلك أخذ الرأي العام يضح من سياسة الحكومة الخارجية والاستعمارية التي أدت إلى الاشتباك في حروب مع الأفغان وقبائل الزولو في جنوبي إفريقيا ، وإن كانت هذه السياسة قد عادت في المستقبل بالخير على الإمبراطورية البريطانية . وقد استغل غلادستون هذه الظروف وطاق البلاد يدعو إلى تحطيم المحافظين ورئيسهم في الانتخابات القادمة . أخذ يحدث القوم قائلاً : « لقد مرت عليكم سنوات خمس لم تسمعوا خلالها سوى الحديث عن مصالح الإمبراطورية البريطانية ، فماذا كانت النتيجة ؟ زادت مساحة روسيا واشتد عداؤها ، وهما أتم ترون أوروبا في اضطراب ، والهند في حالة حرب ، وإفريقية تسيل

فيها الدماء ! وما ذلك إلا لأن العالم فيه أشياء غير الضرورات السياسية ،
هذه هي الضروريات الأخلاقية

أجريت الانتخابات العامة في عام ١٨٨٠ ومنى فيها المحافظون
بهزيمة شنيعة ، وهكذا ثبت قول دزرائيلي من قبل إن الرأي العام
تكونه الصحافة وتخلقه السياسة ، وهكذا تحقق رأى من رمى
الجمهير بالتقلب وعدم الاستقرار . ولكن الهزيمة لم تقض على
شجاعته ، ولم تؤثر على نفوذه في حزب المحافظين ، فظل موضع
التقدير والإكبار .

في أواخر مارس من عام ١٨٨١ أصيب لورد بيكونزفيلد
ببرد اضطره إلى ملازمة الفراش ، وأوضح الفحص الطبي أنه يشكو
التهاباً في شعب الرئة يصحبه ربو متقطع . اشتدت العلة ولكنه
لم يشعر بأدنى خوف من المجهول ، حتى أنه حدث الأطباء المشرفين
على علاجه قائلاً : « إنى أفضل الحياة ، ولكنى لا أُرهب الموت » .
وقد ظل حتى آخر لحظة محتفظاً بثبات نفسه ورباطة جأشه . أما
الملكة فقد ساورها القلق الشديد ، وأخذت تتلقى يوماً بعد يوم
التقارير عن صحة الرجل الذى أحبها وأخلص لها فوثقت به . وفى
كل يوم كانت تأمر بإرسال طاقات الزهر الذى يميل إليه .

ظل المريض يغالب الداء فلم يغلبه ، وبذل رجال الطب غاية
جهدهم فما وفقوا . وفى الساعة الثانية من صباح يوم ١٩ أبريل
دنت النهاية بسرعة . بدت من المريض حركة كأنما أراد أن يتكلم ،

فقال أصدقاؤه عليه ليتعرفوا رغبته، ولكنهم رفعوا أنفسهم
واجمين. لقد انتهى دزرائيلي وغادر عالم الكفاح إلى عالم الهدوء،
وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء.

عرض غلادستون باسم الحكومة البريطانية أن تشيع الجنازة
رسمياً وأن يكون المشوى الأخير لمنافسه السابق مقبرة وستمنستر،
ولكن سيكون فيلد كان قد أوصى بأن يرقد رقدته الأخيرة إلى
جانب ماري آن، وبذا يجمع التراب بين جسيديهما. نفذت الوصية،
وورى الجثمان في مقره الختامي بأشد مظاهر البساطة، ولم يشهد
هذه الجنازة سوى البرنس أوف ويلز ونفر قليل من أصدقاء
الفقيد. وأرسلت الملكة فيكتوريا إكليين من الزهر ليوضع على
النعش، وقد خطت على أحدهما بيدها « عنوان المحبة الخاصة
والصدقة والتقدير ». وهكذا انتهت حياة السياسي العظيم، وقصة
الرجل الذي كانت حياته كلها كفاح، ودروس وعبر ما أجدرنا
تدبرها.

تقدم غلادستون إلى البرلمان باقتراح إقامة تمثال لرئيس الوزارة
الراحل والبرلماني الممتاز، في مقبرة وستمنستر. وهكذا قضى
الموت على مافي النفوس من خلاف وتنافس. لقد حارب
غلادستون الفقيد عهداً طويلاً، وكان يقول للبلاد إن سبب النكبات
التي أصابتها هو أنها أسست قيادها لدزرائيلي وبذا استحققت غضب
الله عليها، ولكنه وقف ذلك اليوم في المجلس يبرر اقتراح تخليد الذكرى

بأن الفقيد قد لعب دوراً تاريخياً هاماً، وأن أعماله لقيت في حينها
التأييد الدستوري الكامل من السلطة التشريعية. وبذا خلص زعيم
الأحرار نفسه من موقف حرج بلباقة. وفي مجلس اللوردات
وقف سالسبوري فألقى رثاء غاية في البلاغة والروعة. أما الملكة
فأمرت بأن يقام، على نفقتها الخاصة، نصب في كنيسة الجهة، وقد
نقشت عليه عبارات منها:

أقامت هذا النصب

مليكته وصديقه الوفية

فكتوريا الملكة والإمبراطورة

« إن الملوك يحبون من ينطق بالحق ».

Steady, John : Socialism, Practice & theory

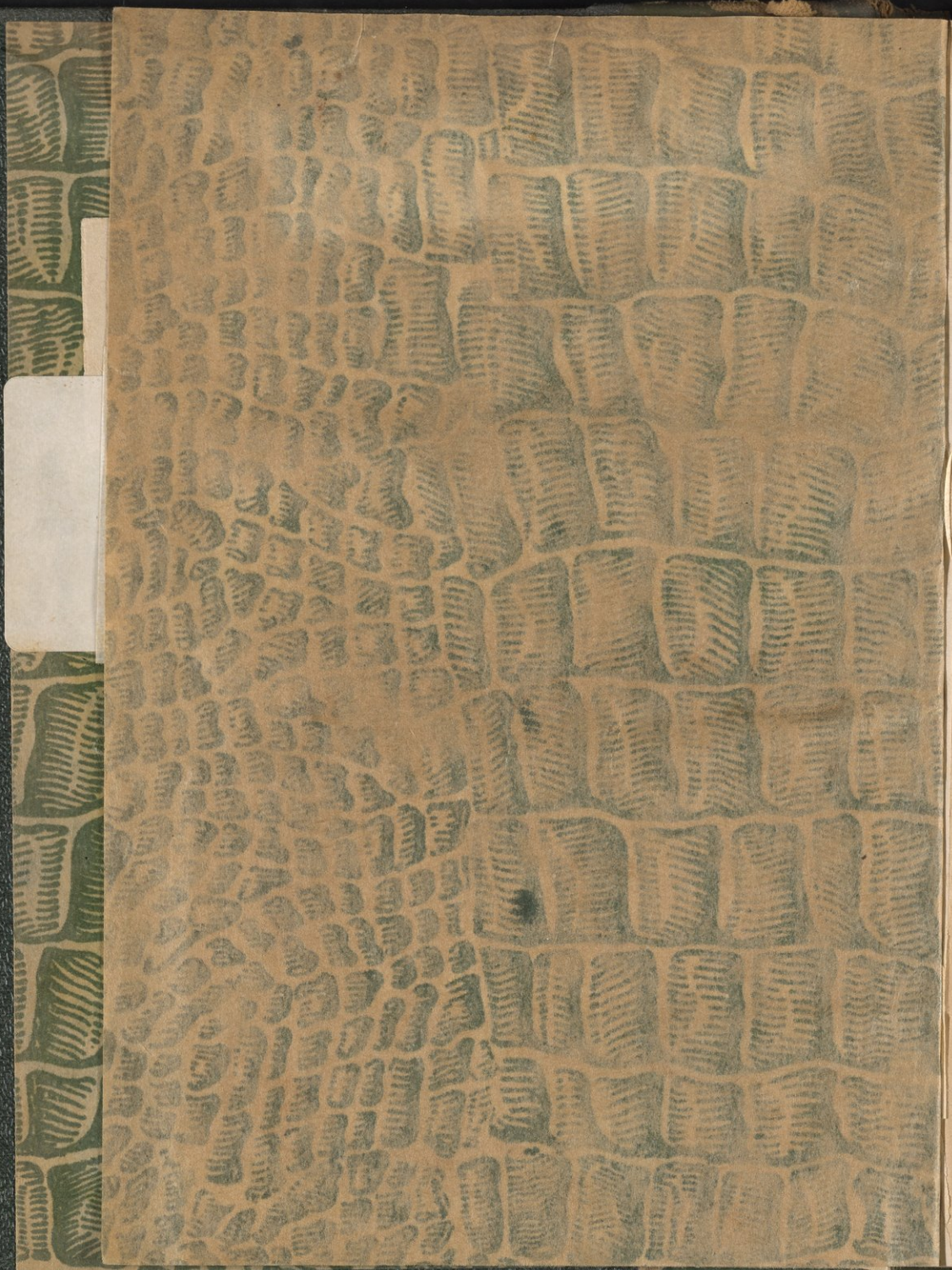
ثبت بالمصادر

1. BAGEHOT (WALTER) : The English Constitution.
2. BARING (EVELYN) (LORD CROMER) : Disraeli. 1912
3. BEER (M) : A History of British Socialism. 1940
4. CAMBRIDGE MODERN HISTORY.
5. CLAPHAM (J.H.) : Economic History of Great Britain.
6. CRABITÈS (PIERRE) : The Spoliation of Suez. 1940
7. FAY (C.R.) : Life and Labour in the Nineteenth Century. 1643.
8. FROUDE (A.) : Life of Lord Beaconsfield.
9. KEITH (ARTHUR BARRIEDALE) : The Constitution of England from Queen Victoria to George VI, 2 vols. 1940.
10. MAUROIS (ANDRÉ) : Disraeli.
11. MONYPENNY AND BUCKLE : Life of Disraeli, 2 vols. 1929.
12. MOWAT (R.B.) : A History of European Diplomacy (1815 — 1914). 1933.
13. MUIR (RAMSAY) : A Short History of the British Empire. (vol. II)
14. OMAN (CHARLES) : A History of England. 1910
15. QUEEN VICTORIA : Letters.
16. SABRY (M) : L'Empire Egyptien sous Ismail. 1933
17. STRACHEY (LYTTON) : Queen Victoria.
18. TREVELYAN (GEORGE MACAULAY) : British History in the Nineteenth Century and After (1782—1919). 1937.

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

ملیم

٥٠٠	للدكتور مصطفى الديوانى . .	صديق العائلة . . .
٥٠٠	» » » . .	حياة الطفل . . .
١٠٠٠	للأستاذ عبد السلام ذهني بك . .	الحقوق . . .
٣٠٠	» دريني خشبه . .	أساطير الحب والجمال . .
٤٠٠	» أحمد فهمى أبو الخير . .	على حافة العالم الأثيرى . .
٢٢٠	» » » . .	السيكولوجيا والروح . .
١٥٠	» توفيق أحمد البكرى . .	الجنسار . . .
٢٠٠	» أحمد الشايب . .	الأسلوب . . .
٤٠٠	» » » . .	تاريخ الشعر السياسى . .
٢٢٠	» محمد عبد الرحيم غنبر . .	مصلح أداة الحكم . .
٥٠٠	للدكتور عبد الرحمن بدوى . .	الزمان الوجودى . .
٥٠٠	» عبد الواحد وافي . .	فقه اللغة . . .
٥٠٠	» » » . .	علم اللغة . . .
٤٥٠	للأستاذ أحمد عطمة الله . .	الذاكرة والنسيان . .



AUC - LIBRARY



DATE DUE

DEC 18 1968

i 1501003x
b1318006x



1 0 0 0 0 1 0 5 3 3 3

DA
564
B3
B3x